بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سَهَّل لعباده المتقين إلىٰ مرضاته سبيلا، وأوضحَ لهم طريقَ الهداية وجعل ٱتباعَ الرسول عليها دليلا، واتَّخذهم عبيدًا[١] له فأقرُّوا له بالعبودية ولم يتَّخذوا من دونه وكيلا، وكتَب في قلوبهم الإيمانَ وأيَّدهم برُوحٍ منه، لـمَّا رضوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولا.

والحمدُ لله الذي أقام في أزمنة الفَتَرات من يكونُ ببيان سُنن المرسلين كفيلا، وٱختصَّ هذه الأمةَ بأنه لا تزالُ فيها طائفةٌ علىٰ الحقِّ لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمرُه ولو ٱجتَمع الثقلان علىٰ حربهم قَبيلا.

يَدْعُون من ضلَّ إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون منهم علىٰ الأذىٰ، ويبصِّرون بنور الله أهلَ العمىٰ، ويُحْيُون بكتابه الموتىٰ؛ فهم أحسنُ الناس هديًا وأقومُهم قِيلا.

فكم مِنْ قتيلٍ لإبليس قد أحْيَوْه، ومِنْ ضالٍّ جاهلٍ لا يعلمُ طريقَ رُشْدِه قد هَدَوْه، ومِنْ مبتدعٍ في دين الله بشُهب الحقِّ قد رَمَوْه؛ جهادًا في الله، وابتغاءَ مرضاته، وبيانًا لـحُجَجه علىٰ العالمين وبيِّناته، وطلبًا للزلفىٰ لديه ونَيل رضوانه وجناته، فحارَبوا[٢] في الله من خرج عن دينه القويم، وصراطه المستقيم، الذين عَقَدوا ألويةَ البدعة، وأطلقوا أعِنَّةَ الفتنة، وخالفوا الكتاب،

---

(١) (ت): «عبادا».

(٢) (ت): «يحاربوا». وفي (ح، ن): «وحاربوا».

واختلفوا في الكتاب، واتفقوا علىٰ مفارقة الكتاب[1]، ونبذوه وراءَ ظهورهم، وارتضوا غيرَه منه بديلا.

أحمدُه وهو المحمودُ علىٰ كلِّ ما قدَّره وقضاه، وأستعينُه ٱستعانةَ من يعلمُ أنه لا ربَّ له غيره[2] ولا إله له سواه، وأستهديه سبيلَ الذين أنعَمَ عليهم ممن ٱختاره لقبول الحقِّ وارتضاه، وأشكرُه والشُّكرُ كفيلٌ بالمزيد من عطاياه، وأستغفرُه من الذُّنوب التي تَحُولُ بين القلب وهُداه، وأعوذُ به من شرِّ نفسي وسيئات عملي ٱستعاذةَ عبد فارٍّ إلىٰ ربِّه بذنوبه[3] وخطاياه، وأعتَصِمُ به من الأهواء المُرْدِية والبدع المُضِلَّة، فما خابَ من أصبح به معتصمًا وبحِمَاه نزيلا.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً أشهدُ بها مع الشاهدين، وأتحمَّلها عن الجاحدين، وأدَّخرها عند الله عُدَّةً ليوم الدِّين.

وأشهدُ أن الحلال ما حلَّله[4]، والحرامَ ما حرَّمه، والدينَ ما شَرَعَه، وأن السَّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأن اللهَ يبعثُ من في القبور.

وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه المصطفىٰ، ونبيُّه المرتضىٰ، ورسولُه الصَّادقُ المصدوق، الذي لا ينطقُ عن الهوىٰ، إن هو إلا وحيٌ يوحىٰ، أرسله رحمةً للعالمين، ومَحَجَّةً للسَّالكين، وحُجَّةً علىٰ العباد أجمعين، أرسله علىٰ حين فترةٍ من الرسل، فهدىٰ به إلىٰ أقوم الطُّرق وأوضح السُّبل، وافترض علىٰ

---

(١) انظر: «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد (٦).

(٢) (ح، ن): «وأستغيثه استغاثة عبد لا رب له غيره».

(٣) (ن): «من ذنوبه».

(٤) (ح): «أحله».

العباد طاعتَه وتعظيمَه، وتوقيرَه وتبجيلَه، والقيامَ بحقوقه، وسَدَّ إليه جميع الطُّرق فلم يَفْتَح لأحدٍ إلا من طريقه، فشَرَحَ له صدرَه، ورَفَعَ له ذِكْرَه، ووَضَع عنه وِزْرَه، وجعَلَ الذِّلَّة والصَّغار علىٰ من خالف أمرَه، هدىٰ به من الضلالة، وعلَّم به من الجهالة، وبصَّر به من العمىٰ، وأرشدَ به من الغَيِّ، وفتحَ به أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا.

فلم يزل ﷺ قائمًا بأمر الله لا يردُّه عنه رادٌّ، داعيًا إلىٰ الله لا يصدُّه عنه صادٌّ، إلىٰ أن أشرقت برسالته الأرضُ بعد ظلماتها، وتألَّفت به[1] القلوبُ بعد شَتاتها، وسارت دعوتُه مسيرَ الشمس[2] في الأقطار، وبلغ دينُه ما بلغ الليلُ والنَّهار.

فلمَّا أكمل الله به الدِّين، وأتمَّ به النعمة علىٰ عباده المؤمنين، ٱستأثر به، ونَقَلَه إلىٰ الرفيق الأعلىٰ من كرامته، والمحلِّ الأرفع الأسنىٰ من أعلىٰ جنَّاته، ففارَق الأمةَ وقد تركها علىٰ المحجَّة البيضاء، التي لا يزيغُ عنها إلا من كان من الهالكين.

فصلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الطَّيبين الطَّاهرين، صلاةً دائمةً بدوام السَّماوات والأرضين، مقيمةً عليهم أبدًا لا ترومُ ٱنتقالًا عنهم ولا تحويلا.

أمَّا بعد؛ فإنَّ الله سبحانه لما أهبطَ آدمَ أبا البشر ــ عليه السلام ــ من الجنة؛ لِمَا له في ذلك من الحِكَم التي تعجزُ العقولُ عن معرفتها، والألسنُ عن صفتها[3]، فكان إهباطُه منها عَيْنَ كماله، ليعود إليها علىٰ أحسن أحواله؛

---

(١) «به» ساقطة من (ت، ق).

(٢) (ت، ق): «سير الشمس».

(٣) بسط المصنف القول في هذه الحكم في «شفاء العليل» (٦٦١ - ٦٧٧).

فأراد سبحانه أن يُذِيقَه وولدَه من تعب الدُّنيا وغمومها وهمومها وأوصابها ما يَعْظُمُ به عندهم مقدارُ دخولهم إليها في الدار الآخرة؛ فإنَّ الضدَّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضدُّ، ولو تربَّوا في دار النعيم لم يعرفوا قَدْرَها.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه أراد أمرَهم ونهيَهم، وابتلاءهم واختبارهم، وليست الجنةُ دارَ تكليف؛ فأهبطَهم إلىٰ الأرض، وعَرَّضهم بذلك لأفضل الثواب[1] الذي لم يكن ليُنال بدون الأمر والنَّهي.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلًا، وأولياء وشهداء، يحبُّهم ويحبُّونه، فخلَّىٰ بينهم وبين أعدائه، وامتحنَهم بهم، فلمَّا آثروه وبذلوا نفوسَهم وأموالَهم في مرضاته ومحابِّه نالوا من محبَّته ورضوانه والقُرْب منه ما لم يكن ليُنال بدون ذلك أصلًا؛ فدرجةُ الرسالة والنبوَّة والشَّهادة والحبِّ فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدَّرجات، ولم يكن يُنالُ هذا[2] إلا علىٰ الوجه الذي قَدَّرَه وقضاه مِنْ إهباطه إلىٰ الأرض وجَعْلِ معيشة أولاده فيها.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه له الأسماءُ الحسنىٰ؛ فمِن أسمائه: الغفور، الرحيم، العَفُوُّ، الحليم، الخافض، الرافع، المُعِزُّ، المُذِلُّ، المُحْيِي، المميت، الوارث، الصَّبور[3]؛ ولا بدَّ من ظهور أثر هذه الأسماء؛ فاقتضت

---

(١) (ح): «وعوضهم بذلك أفضل الثواب».

(٢) (ت): «ولم تكن تنال هذه».

(٣) ورد هذا الاسم في حديث أبي هريرة الطويل في أسماء الله، الذي أخرجه الترمذي (٣٥٠٧) وغيره.

والصواب الذي عليه جماعةٌ من الحفاظ: أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرجٌ =

حكمتُه سبحانه أن يُنْزِل آدمَ وذريَّته دارًا يظهَرُ عليهم فيها أثرُ أسمائه الحسنىٰ، يَغْفِرُ فيها لمن يشاء، ويرحمُ من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرفعُ من يشاء، ويُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، وينتقمُ ممن يشاء، ويعطي ويمنع، ويقبض ويبسط، إلىٰ غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه الملكُ الحقُّ المبين، والملكُ هو الذي يأمرُ وينهىٰ، ويثيبُ ويعاقب، ويُهِينُ ويُكْرِم، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، فاقتضىٰ ملكُه سبحانه أن أنزل آدمَ وذريَّته دارًا تجري عليهم فيها أحكامُ الملك، ثمَّ ينقلُهم إلىٰ دارٍ يُتِمُّ عليهم فيها ذلك.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه أنزلهم إلىٰ دارٍ يكونُ إيمانُهم فيها بالغيب، والإيمانُ بالغيب هو الإيمانُ النَّافع[1]، وأمَّا الإيمانُ بالشَّهادة فكلُّ أحدٍ يؤمنُ يوم القيامة، يوم لا ينفعُ نفسًا إلا إيمانُها في الدنيا؛ فلو خُلِقوا في دار النعيم لم ينالوا درجةَ الإيمان بالغيب، واللَّذةُ والكرامةُ الحاصلة بذلك لا تحصُل بدونه، بل كان الحاصلُ لهم في دار النعيم لذَّةً وكرامةً غير هذه.

* **وأيضًا**؛ فإنَّ الله سبحانه خلق آدمَ من قبضةٍ قَبَضها من جميع الأرض، والأرضُ فيها الطيبُ والخبيث، والسَّهْل والحَزْن، والكريمُ واللئيم؛ فعَلِم

= من كلام بعض السلف. وذهب بعضهم إلى صحة رفعه.

انظر: «صحيح ابن حبان» (٨٠٨)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ١٦)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (١/ ٣٣)، وجزء أبي نعيم الأصبهاني في طرق هذا الحديث، و«مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٧٩، ٨/ ٩٦، ٢٢/ ٤٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥١٧)، و«فتح الباري» (١١/ ٢١٥)، و«الأمالي المطلقة» (٢٢٧ - ٢٤٥).

كما ورد الاسم في حديثٍ آخر أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٧٥)، ولا يصحُّ.

(١) «والإيمان بالغيب» ساقط من (ح، ن).

سبحانه أنَّ في ظهره من لا يصلحُ لمساكنته في داره، فأنزلَه إلىٰ دارٍ ٱستخرَجَ فيها الطيبَ والخبيثَ من صُلْبه، ثم ميَّزهم سبحانه بدارَين؛ فجعَل الطيِّبين أهلَ جِواره ومساكنته في داره، وجعَل الخبيثين أهلَ دارِ الشَّقاء دارِ الخبثاء.

قال تعالىٰ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

فلمَّا عَلِمَ سبحانه أنَّ في ذريَّته من ليس بأهلٍ(١) لمجاورته، أنزلَهم دارًا ٱستخرَجَ منها أولئك وألحقَهم بالدار التي هم لها أهل؛ حكمةً بالغة، ومشيئةً نافذة، ذلك تقديرُ العزيز العليم.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه لما قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أجابهم بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم أظهَر سبحانه علمَه لعباده ولملائكته، بما جعَله في الأرض من خواصِّ خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه، ومن يتقرَّبُ إليه ويَبْذُل نفسَه في محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه، فيتركُ محبوباته تقربًا إليَّ(٢)، ويتركُ شهواته ٱبتغاءَ مرضاتي، ويَبْذُل دمَه ونفسه في محبتي، وأخُصُّه بعلمٍ لا تَعْلَمونه، يُسَبِّحُ بحمدي آناءَ الليل وأطرافَ النَّهار، ويعبدُني مع مُعارَضات(٣) الهوىٰ والشَّهوة

---

(١) (ح): «أهلا».

(٢) كذا في الأصول. وهو التفات.

(٣) (ت): «معارضة».

والنفس والعدوِّ، إذ تعبدونني أنتم من غير مُعارِضٍ يعارضُكم، ولا شهوةٍ تعتريكم، ولا عدوٍّ أسلِّطه[1] عليكم، بل عبادتكم لي بمنزلة النَّفَس لأحدهم.

* **وأيضًا**؛ فإني أريدُ أن أُظْهِرَ ما خفي عليكم من شأن عدوِّي ومحاربته لي، وتكبُّره عن أمري، وسعيه في خلاف مرضاتي.

وهذا وهذا كانا كامنَين مستترَين في أبي البشر وأبي الجنِّ، فأنزَلهم إلىٰ دارٍ ظَهَر فيها[2] ما كان الله سبحانه منفردًا بعلمه لا يعلمُه سواه، وظهرت حكمتُه وتمَّ أمرُه، وبدا للملائكة مِنْ علمه ما لم يكونوا يعلمون.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه لما كان يحبُّ الصَّابرين، ويحبُّ المحسنين، ويحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيانٌ مرصوص، ويحبُّ التوابين، ويحبُّ المتطهِّرين، ويحبُّ الشاكرين، وكانت محبته أعلىٰ أنواع الكرامات= ٱقتضت حكمتُه أن أسكَنَ آدمَ وبنيه دارًا يأتون فيها بهذه الصِّفات التي ينالون بها أعلىٰ الكرامات من محبَّته؛ فكان إنزالُهم إلىٰ الأرض من أعظم النعم عليهم، والله يختصُّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه أراد أن يتَّخذ من آدمَ ذريةً يواليهم ويودُّهم، ويحبُّهم ويحبُّونه؛ فمحبتُهم له هي غايةُ كمالهم ونهايةُ شرفهم، ولم تكن لتتحقَّق[3] هذه المرتبةُ السَّنيةُ إلا بموافقة رضاه واتباع أمره، وتركِ إرادات النفس وشهواتها التي يكرهها محبوبُهم؛ فأنزلهم دارًا أمَرهم فيها ونهاهم؛ فقاموا بأمره ونهيه؛ فنالوا درجة محبَّتهم له؛ فأنالَهم درجةَ حبِّه إياهم، وهذا

(١) (ن): «سلطته».

(٢) (ق): «فأنزلهم دارا أظهر فيها».

(٣) (ق): «ولم يمكن تحقيق».

من تمام حكمته وكمال رحمته، وهو البَرُّ الرحيم.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه لما خلَق خلقَه أطوارًا وأصنافًا، وسبَق في حكمه[1] تفضيلُه آدمَ وبنيه علىٰ كثيرٍ من مخلوقاته= جعَل عبوديَّته أفضلَ درجاتهم، أعني العبوديةَ الاختيارية التي يأتونَ بها طوعًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارًا.

وقد ثبت أنَّ الله سبحانه أرسل جبريلَ إلىٰ النبي ﷺ يخيِّره بين أن يكون مَلِكًا نبيًّا أو عبدًا نبيًّا، فنظر إلىٰ جبريل كالمستشير له، فأشار إليه أنْ تواضعْ، فقال: «**بل أكونُ عبدًا نبيًّا**»[2]؛ فذَكَره سبحانه باسم عبوديَّته في أشرف مقاماته: في مقام الإسراء، ومقام الدَّعوة، ومقام التحدِّي.

فقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل: «برسوله»، ولا: «نبيه»؛ إشارةً إلىٰ أنه نال هذا المقامَ الأعظم بكمال عبوديَّته لربه.

وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

---

(١) (ت): «حكمته».

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦٧١٠) - ومن طريقه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥/ ٣٣٨)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (٦١١) من حديث ابن عباس بإسنادٍ منقطع.

وانظر: «النكت الظراف» (٥/ ٢٣٢).

وروي نحوه من حديث أبي هريرة.

أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، والبزار (٣/ ١٥٥ ـ كشف الأستار).

وصححه ابن حبان (٦٣٦٥).

وقال في مقام التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي «الصحيحين» في حديث الشَّفاعة، وتراجُع الأنبياء فيها، وقول المسيح ﷺ: «**ٱذهبوا إلىٰ محمد؛ عبد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**»[١]، فدلَّ ذلك علىٰ أنه نال ذلك المقام الأعظم[٢] بكمال عبوديته لله، وكمال مغفرة الله له.

وإذا كانت العبوديةُ عند الله بهذه المنزلة، ٱقتضت حكمتُه أن أسكَنَ آدمَ وذريَّته دارًا ينالون فيها هذه الدرجةَ بكمال طاعتهم لله، وتقرُّبهم إليه بمحابِّه، وتَرْك مألوفاتهم من أجله؛ فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه أراد أن يعرِّف عبادَه الذين أنعم عليهم تمامَ نعمته عليهم، ويعرِّفهم قَدْرَها؛ ليكونوا أعظم محبةً له، وأكثر شكرًا، وأعظمَ ٱلتذاذًا بما أعطاهم من النعيم؛ فأراهم سبحانه فِعْلَه بأعدائه، وما أعدَّ لهم من العذاب وأنواع الآلام، وأشهَدَهم تخليصَهم من ذلك، وتخصيصَهم بأعلىٰ أنواع النعيم؛ ليزداد سرورُهم، وتكمُل غبطتُهم، ويعظُم فرحُهم، وتتمَّ لذتُهم، وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبَّتهم.

ولم يكن بدٌّ في ذلك من إنزالهم إلىٰ الأرض وامتحانهم واختبارهم، وتوفيق من شاء منهم رحمةً منه وفضلًا، وخذلان من شاء حكمةً منه وعدلًا، وهو العليم الحكيم.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٩٣) من حديث أنس.

(٢) (ت، ن): «العظيم».

ولا ريب أن المؤمنَ إذا رأىٰ عدوَّه وعدوَّ محبوبه ـ الذي هو أحبُّ الأشياء إليه ـ في أنواع العذاب والآلام، وهو يتقلَّبُ في أنواع النعيم واللذة= ٱزدادَ بذلك سرورُه، وعَظُمَت لذتُه وكَمُلت نعمتُه.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، وهي الغايةُ المطلوبة منهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومعلومٌ أن كمال العبودية المطلوبَ من الخلق لا يحصُل في دار النعيم والبقاء، إنما يحصُل في دار المحنة والابتلاء، وأما دار البقاء فدار لذَّةٍ ونعيم، لا دار ٱبتلاءٍ وامتحانٍ وتكليف.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه ٱقتضت حكمتُه خلقَ آدم وذريَّته في تركيبٍ[(١)] مستلزمٍ لداعي الشَّهوة والغضب، وداعي العقل والعلم؛ فإنه سبحانه خلق فيه العقل[(٢)] والشَّهوة ونَصَبَهما داعيَين لمقتضياتهما[(٣)]؛ ليتمَّ مراده، ويظهر لعباده عزَّته في حكمته[(٤)] وجبروته، ورحمته وبرِّه، ولطفه في سلطانه وملكه.

فاقتضت حكمتُه ورحمتُه أنْ أذاقَ أباهم وَبِيلَ مخالفته، وعرَّفه ما تجني عواقبُ إجابة الشَّهوة والهوىٰ؛ ليكون أعظم حذرًا فيها[(٥)] وأشدَّ هروبًا.

---

(١) (ق): «من تركيب».

(٢) من قوله: «وأيضا فإنه سبحانه» إلى هنا بياض في (د).

(٣) (ق): «بمقتضياتهما».

(٤) (ت): «عزته وحكمته».

(٥) أي: الإجابة. (ت): «فيهما» أي: الهوى والشهوة.

وهذا كحال رجلٍ سائرٍ علىٰ طريقٍ قد كَمَنت الأعداءُ في جَنَباته، وخلفه وأمامه، وهو لا يشعرُ بها[1]، فإذا أصيب منها مرةً بمصيبةٍ ٱستعدَّ في سيره، وأخذ أُهْبَةَ عدوِّه، وأعدَّ له ما يدفعُه به. ولولا أنه ذاق ألم إغارة عدوِّه عليه وتبييته له لما سمحت نفسُه بالاستعداد والحذر وأخذ العُدَّة.

فمِن تمام نعمة الله علىٰ آدم وذريَّته أنْ أراهم ما فعَل العدوُّ بهم وبأبيهم فاستعدُّوا له وأخذوا أُهْبتَه.

فإن قيل: كان من الممكن أن لا يسلِّط عليهم العدوَّ.

قيل: قد تقدَّم أنه سبحانه خلق آدمَ وذريَّته علىٰ بِنْيةٍ وتركيبٍ مستلزمٍ لمخالطتهم لعدوِّهم وابتلائهم به، ولو شاء لخلقَهم كالملائكة الذين هم عقولٌ بلا شهوات[2]، فلم يكن لعدوِّهم طريقٌ إليهم، ولكن لو خُلِقوا هكذا لكانوا خلقًا آخرَ غيرَ بني آدم؛ فإنَّ بني آدم قد رُكِّبوا علىٰ العقل والشَّهوة.

* **وأيضًا**؛ فإنه لما كانت محبةُ الله وحده هي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلًا، وكانت المحبةُ الصَّادقةُ إنما تتحقَّقُ[3] بإيثار المحبوب علىٰ غيره من محبوبات النفوس، واحتمال أعظم المشاقِّ في طاعته ومرضاته، فبهذا تتحقَّق المحبةُ ويُعْلَمُ ثبوتُها في القلب= ٱقتضت حكمتُه سبحانه إخراجَهم إلىٰ هذه الدَّار المحفوفة بالشهوات ومحابِّ النفوس، التي بإيثار المحبوب[4] الحقِّ عليها والإعراض عنها

(١) «بها» ليست في (ق).

(٢) (ح): «شهوة».

(٣) التاء الأولى مضبوطةٌ بالضم في (ق) في الموضعين.

(٤) (ت): «النفوس». وساقطة من (د، ق).

يتحقَّقُ حبُّهم له وإيثارهم إيَّاه علىٰ غيره.

وكذلك بتحمُّل[1] المشاقِّ الشديدة، وركوب الأخطار، واحتمال المَلامة، والصبر علىٰ دواعي الغيِّ والضلال، ومجاهدتها[2]= يقوىٰ سلطانُ المحبة، وتثبُت[3] شجرتُها في القلب، وتَعْظُم[4] ثمرتُها علىٰ الجوارح؛ فإنَّ المحبة الثابتة اللازمة علىٰ كثرة الموانع والعوارض والصَّوارف هي المحبةُ الحقيقيةُ النافعة، وأمَّا المحبةُ المشروطة بالعافية والنعيم واللذَّة وحصول مراد المحبِّ من محبوبه فليست محبةً صادقة، ولا ثباتَ لها عند المعارضات والموانع؛ فإنَّ المعلَّق علىٰ الشرط عدمٌ عند عدمه، ومَنْ وَدَّك لأمرٍ ولَّىٰ عند ٱنقضائه.

وفرقٌ بين من يعبدُ الله علىٰ السرَّاء والرخاء والعافية فقط، وبين من يعبده علىٰ السرَّاء والضرَّاء، والشدَّة والرخاء، والعافية والبلاء.

* **وأيضًا**؛ فإنَّ الله سبحانه له الحمدُ المطلقُ الكاملُ الذي لا نهاية بعده، فكان ظهورُ الأسباب التي يُحْمَدُ عليها مِنْ مقتضىٰ كونه محمودًا، وهي من لوازم حمده تعالىٰ، وهي نوعان: فضلٌ، وعدل؛ إذ هو سبحانه المحمودُ علىٰ هذا وعلىٰ هذا، فلا بدَّ من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمَّياتها، ليترتَّب عليها[5] كمالُ الحمد الذي هو أهلُه.

---

(١) (د): «تتحمل». (ت): «ولذلك تتحمل». (ح، ن): «ولذلك يتحمل».

(٢) (ح، ن): «وبمجاهدتها».

(٣) (ن): «وتنبت».

(٤) (د، ق، ن، ح): «وتطعم».

(٥) (ح): «المرتب عليها».

فكما أنه سبحانه محمودٌ علىٰ إحسانه وبرِّه، وفضله وثوابه، فهو محمودٌ علىٰ عدله وانتقامه وعقابه، إذ مَصْدَرُ[1] ذلك كلِّه عن عزَّته وحكمته.

ولهذا ينبِّه سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذا كثيرًا، كما في سورة الشعراء، حيث يذكرُ في آخرِ كلِّ قصَّةٍ من قصص الرسل وأممهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨ - ٩]؛ فأخبر سبحانه أنَّ ذلك صادرٌ عن عزَّته المتضمِّنة كمالَ قدرته، وحكمته المتضمِّنة كمالَ علمه ووضعه الأشياءَ مواضعها اللائقة بها[2]. فما وَضعَ نعمتَه وإنجاءه[3] لرسله ولأتباعهم، ونقمتَه وإهلاكَه لأعدائهم، إلا في محلِّها اللائق بها؛ لكمال عزَّته وحكمته.

ولهذا قال سبحانه عقبَ إخباره عن قضائه بين أهل السَّعادة والشَّقاوة، ومصير كلٍّ منهم إلىٰ ديارهم التي لا يليقُ بهم غيرُها، ولا تقتضي حكمتُه سواها: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه اقتضت حكمتُه وحمدُه أنْ فاوتَ بين عباده أعظمَ تفاوتٍ وأبينَه؛ ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمتُه وفضلُه، ويعرفَ أنه قد حُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ دونَ غيره بالإكرام.

---

(١) (ق): «إذ يصدر».

(٢) كذا في الأصول. وهو سهوٌ من المصنف؛ فليس في الآية ذكرٌ للحكمة، وإنما هي الرحمة. وتنبَّه لذلك في «شفاء العليل» (٥٦٢)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٩٢)، فقال: «فصدور هذا الإهلاك عن عزته وذلك الإنجاء عن رحمته».

(٣) في الأصول: «ونجاته». كأن المصنف رسمها: «وإنجائه». والإهلاك يقابله: الإنجاء. وانظر: «المدارج» (الموضع السابق).

ولو تساووا جميعُهم في النعمة والعافية لم يعرِف صاحبُ النعمة قدرَها، ولم يبذل شكرَها إذ لا يرىٰ أحدًا إلا في مثل حاله.

ومن أقوىٰ أسباب الشكر وأعظمها ٱستخراجًا له من العبد: أن يرىٰ غيرَه في ضدِّ حاله الذي هو عليها من الكمال والفلاح.

وفي الأثر المشهور: أنَّ الله سبحانه لما أرىٰ آدمَ ـ عليه السلام ـ ذريتَه، وتفاوتَ مراتبهم[1]، قال: يا ربِّ! هلَّا سوَّيتَ بين عبادك. قال: «**إني أحبُّ أن أُشْكَر**»[2].

فاقتضت محبتُه سبحانه لأن يُشْكَر خَلْقَ الأسباب التي يكونُ شكرُ الشَّاكرين عندها أعظمَ وأكمل، وهذا هو عينُ الحكمة الصَّادرة عن صفة الحمد.

---

(١) (ح، ن): «فرأى تباينهم وتفاوت مراتبهم».

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٥)، والطبري في «التفسير» (١٣/ ٢٣٨)، والفريابي في «القدر» (٥١، ٥٢)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٣٠)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٨/ ٩١)، وغيرهم من طرقٍ يصحُّ بها عن أبيِّ ابن كعبٍ موقوفًا في سياقٍ طويل.
وصححه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٢٣) ولم يتعقبه الذهبي، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٣/ ٣٦٤).
وانظر: «الروح» للمصنف (٤٣٥، ٤٤٥).
وروي نحوه من حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم في «التفسير»، ولا يصحُّ. انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥٠٨).
وروي من مرسل الحسن البصري عند عبد الرزاق في «المصنف» (١٠/ ٤٢٤)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٠٨)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٦٥) من طرق.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه لا شيء أحبَّ إليه من العبد مِنْ تذلُّله بين يديه، وخضوعه وافتقاره، وانكساره وتضرُّعه إليه.

ومعلومٌ أنَّ هذا المطلوبَ من العبد إنما يتمُّ بأسبابه التي يتوقَّف عليها، وحصولُ هذه الأسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة ممتنع؛ إذ هو مستلزمٌ للجمع بين الضدَّين.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه له الخلقُ والأمر، والأمرُ هو شرعُه وأمرُه ودينُه الذي بعث به رسلَه، وأنزل به كتبه، وليست الجنةُ دار تكليفٍ تجري عليهم فيها أحكامُ التكليف ولوازمُها، وإنما هي دارُ نعيمٍ ولذَّة؛ فاقتضت حكمتُه سبحانه إخراجَ آدمَ[1] وذريَّته إلىٰ دارٍ تجري عليهم [فيها][2] أحكامُ دينه وأمره؛ ليظهرَ فيهم مقتضىٰ الأمر ولوازمُه؛ فإنَّ الله سبحانه كما أنَّ أفعاله وخلقَه من لوازم كمال أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، فكذلك أمرُه وشرعُه وما يترتبُ عليه من الثواب والعقاب.

وقد أرشدَ سبحانه إلىٰ هذا المعنىٰ في غير موضعٍ من كتابه، فقال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: مهملًا معطَّلًا لا يؤمرُ ولا يُنهىٰ، ولا يثابُ ولا يعاقَب.

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذا منافٍ لكمال حكمته، وأنَّ ربوبيته وعزَّته وحكمته تأبىٰ ذلك، ولهذا أخرجَ الكلامَ مخرجَ الإنكار علىٰ من زعم ذلك، وهو يدلُّ علىٰ أنَّ حُسْنَه مستقرٌّ في الفِطر والعقول، وقُبحَ تركه سدًى معطَّلًا مستقرٌّ في

---

(١) (ت، ق): «استخراج آدم».

(٢) ليست في الأصول. والسياق يقتضيها.

الفِطر، فكيف يُنْسَبُ إلىٰ الربِّ ما قبحُه مستقرٌّ في فطركم وعقولكم؟!

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]؛ نزَّه نفسه سبحانه عن هذا الحُسْبان[1] الباطل المضادِّ لمُوجَب أسمائه وصفاته، وأنه لا يليقُ بجلاله نسبتُه إليه.

ونظائرُ هذا في القرآن كثيرة.

* **وأيضًا**؛ فإنه سبحانه يحبُّ من عباده أمورًا يتوقَّفُ حصولُها منهم علىٰ حصول الأسباب المقتضية لها، ولا تحصُل إلا في دار الابتلاء والامتحان؛ فإنه سبحانه يحبُّ الصابرين، ويحبُّ الشاكرين، ويحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفًّا، ويحبُّ التَّوابين، ويحبُّ المتطهِّرين، ولا ريبَ أنَّ حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع، كامتناع حصول الملزوم بدون لازمه، والله سبحانه أفرحُ بتوبة عبده حين يتوبُ إليه من الفاقد لراحلته التي عليها طعامُه وشرابُه في أرضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكةٍ إذا وجدَها.

كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَلَّـهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجلٍ في أرضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكةٍ معه راحلتُه، عليها طعامُه وشرابُه، فنام، فاستيقَظ وقد ذهبَت، فطلبها حتىٰ أدركَه العطش، ثم قال: أرجعُ إلىٰ المكان الذي كنتُ فيه، فأنامُ حتىٰ أموت، فوضع رأسَه علىٰ ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلتُه، عليها زادُه وطعامُه وشرابُه، فالله**

---

(١) بكسر الحاء في (ق). والوجهان جائزان. وفي (ح، ن): «الحساب». وفي هامش (ح) إشارة إلى أن في نسخة: «الحسبان».

أشدُّ فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»[1].

وهذا غايةُ ما يكونُ من الفرح وأعظمُه، ومع هذا فالله سبحانه أشدُّ فرحًا بتوبة العبد المؤمن من فرح هذا براحلته[2].

وسيأتي ـ إن شاء الله ـ الكلامُ علىٰ هذا الحديث[3]، وذكرُ سرِّ هذا الفرح بتوبة العبد[4].

والمقصودُ أنَّ هذا الفرحَ المذكورَ إنما يكونُ بعد التوبة من الذنب، فالتوبةُ والذنبُ لازمان لهذا الفرح، ولا يوجد الملزومُ بدون لازمه، وإذا كان هذا الفرحُ المذكورُ إنما يحصُل بالتوبة المستلزمة للذنب، فحصولُه في دار النعيم التي لا ذنبَ فيها ولا مخالفة ممتنع.

ولما كان هذا الفرحُ أحبَّ إلىٰ الربِّ سبحانه من عدمه ٱقتضت محبتُه له خلقَ الأسباب المُفْضِية إليه؛ ليترتَّب عليها المُسَبَّبُ الذي هو محبوبٌ له.

* **وأيضًا**؛ فإن الله سبحانه جعل الجنةَ دار جزاءٍ وثواب، وقسَّم منازلها بين أهلها علىٰ قَدْرِ أعمالهم، وعلىٰ هذا خلقها سبحانه؛ لما له في ذلك من الحكمة التي ٱقتضتها أسماؤه وصفاتُه؛ فإنَّ الجنة درجاتٌ بعضُها فوق

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود. والدَّوِيَّة: الأرض القفر الخالية. والـمَهْلكة (بفتح اللام وكسرها): موضع خوف الهلاك.

(٢) من قوله: «وهذا غاية» إلى هنا ليس في (ح، ن).

(٣) لم يقع ذلك في باقي الكتاب، وانظر ما سيأتي (ص: ٨١٣)، وراجع ما كتبناه في المقدمة.

(٤) (ت): «الفرح بهذا العبد».

بعض، وبين الدرجتين كما بين السَّماء والأرض؛ كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الجنةَ مئة درجة، بين كلِّ درجتين كما بين السَّماء والأرض**»(١).

وحكمةُ الربِّ سبحانه مقتضيةٌ لعمارة هذه الدَّرجات كلِّها، وإنما تُعْمَرُ ويقعُ التفاوتُ فيها بحسب الأعمال، كما قال غيرُ واحدٍ من السلف: «ينجونَ من النار بعفو الله ومغفرته، ويدخلونَ الجنة بفضله ونعمتِه(٢)، ويتقاسمونَ المنازلَ بأعمالهم»(٣).

وعلىٰ هذا حملَ غيرُ واحدٍ ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال، كقوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

قالوا: وأما نفيُ دخولها بالأعمال كما في قوله ﷺ: «**لن يَدْخُل الجنةَ أحدٌ بعمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا**»(٤)، فالمرادُ به نفيُ أصل الدخول.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) (ق): «ونعمته ومغفرته».

(٣) أخرجه هناد في «الزهد» (١/ ٤٠٤) عن ابن مسعود موقوفًا بإسنادٍ ضعيف.
وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ٧٤) عن عون بن عبد الله.
وروي مرفوعًا من حديث أنس بن مالك عند ابن أبي الدنيا بإسنادٍ ضعيف، ساقه ابن كثير في «النهاية» (٢٠/ ١٠١) ثم قال: «وهذا حديث غريب».

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة.

وأحسنُ من هذا أن يقال: الباءُ المقتضيةُ للدخول غيرُ الباء التي نُفِيَ معها الدخول؛ فالمقتضيةُ هي باءُ السببية الدالَّة علىٰ أن الأعمال سببٌ للدخول مقتضيةٌ له كاقتضاء سائر الأسباب لمُسَبَّباتها[1]، والباءُ التي نُفِيَ بها الدخولُ هي باءُ المُعاوَضة والمقابلة التي في نحو قولهم: ٱشتريتُ هذا بهذا[2].

فأخبرَ النبي ﷺ أنَّ دخولَ الجنة ليس في مقابل عمل أحد، وأنه لولا تغمُّد الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة، فليس عملُ العبد ـ وإن تناهىٰ ـ مُوجِبًا بمجرَّده لدخول الجنة، ولا عِوَضًا لها، فإنَّ أعماله وإن وقعت منه علىٰ الوجه الذي يحبُّه الله ويرضاه فهي لا تقاوِمُ نعمةَ الله التي أنعَم بها عليه في دار الدنيا، ولا تُعادِلها، بل لو حاسَبه لوقعَت أعمالُه كلُّها في مقابلة اليسير من نِعَمه، وتبقىٰ بقيةُ النعم مقتضيةً لشكرها، فلو عذَّبه في هذه الحالة لعذَّبه وهو غيرُ ظالمٍ له، ولو رحمَه لكانت رحمتُه خيرًا له من عمله؛ كما في «السنن» من حديث زيد بن ثابت وحذيفة بن اليمان وغيرهما مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله لو عذَّب أهلَ سماواته وأهلَ أرضه لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رحمَهم لكانت رحمتُه خيرًا لهم من أعمالهم**»[3].

---

(١) (ت): «سائر الأسباب المسبب إليها».

(٢) انظر تقرير هذا المعنىٰ في «جامع الرسائل» (١/ ١٤٣)، و«مجموع الفتاوى» (١/ ٢١٧، ٨/ ٧٠)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٠٦)، و«حادي الأرواح» (١٧٧)، و«الكافية الشافية» (١٠٣٤)، وما سيأتي من الكتاب (ص:١٠٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (٥/ ١٨٥، ١٨٩)، وغيرهم. وصححه ابن حبان (٧٢٧)، والمصنف في «شفاء العليل» (١١٣).
وقال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٤٢٢): «وفي هذا الحديث =

والمقصودُ أنَّ حكمتَه سبحانه ٱقتضت خلقَ الجنة درجاتٍ بعضُها فوق بعض، وعمارتَها بآدم وذريته، وإنزالَهم فيها بحسب أعمالهم. ولازمُ هذا إنزالهُم إلىٰ دار العمل والمجاهدة.

* **وأيضًا**[1]؛ فإنه سبحانه خلق آدمَ وذريته ليستخلفَهم في الأرض، كما أخبر سبحانه في كتابه بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فأراد سبحانه أن ينقلَه وذريَّته من هذا الاستخلاف إلىٰ توريثه جنةَ الخلد، وعَلِمَ سبحانه بسابق علمه أنه لضعفه وقصور نظره قد يختارُ العاجلَ الخسيسَ علىٰ الآجل النفيس؛ فإنَّ النفسَ مُولَعةٌ بحبِّ العاجلة وإيثارها علىٰ الآخرة، وهذا من لوازم كونه خُلِقَ من عَجَل وخُلِقَ عجولًا[2].

= نظر؛ ووهب بن خالد ليس بذاك المشهور بالعلم، وقد يحمل على أنه لو أراد تعذيبهم لقدَّر لهم ما يعذِّبهم عليه، فيكون غير ظالمٍ لهم حينئذ».

وفيما قال ابن رجب رحمه الله نظر؛ فإنَّ وهب بن خالد - على ثقته - لم ينفرد بالحديث، فقد أخرجه الفريابي في «القدر» (١٩٠، ١٩١) - ومن طريقه الآجري في «الشريعة» (٣٧٣، ٤٢٤) -، وابن بطة في «الإبانة» (١٥٨٨ - القدر) من وجهٍ آخر لا بأس به.

ثم إنَّ ما ذكره من التوجيه ليس بجيد. وانظر لتحقيق معنى الحديث، وغلط الطوائف في فهمه: «شفاء العليل» (٣٤٣)، و«طريق الهجرتين» (٦٢١)، و«عدة الصابرين» (٢٦٦)، وما سيأتي من الكتاب (ص: ١١٣٢).

(١) انظر: «تفسير الراغب الأصبهاني» (ق ٤٠/ أ).

(٢) (ق): «من لوازم قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وقوله: وخلق الإنسان». والإشارة =

فعلمَ سبحانه ما في طبيعته من الضَّعف والخَوَر، فاقتضت حكمتُه أنْ أدخلَه الجنة ليعرفَ النعيمَ الذي أُعِدَّ له عيانًا؛ فيكون إليه أشوَق[١]، وعليه أحرَص، وله أشدَّ طلبًا؛ فإنَّ محبةَ الشيء وطلبه والشَّوق إليه من لوازم تصوُّره، فمن باشر طِيبَ شيءٍ ولذَّته وتذوَّق به[٢] لم يكد يصبرُ عنه؛ وهذا لأنَّ النفسَ ذوَّاقةٌ توَّاقة، فإذا ذاقَت تاقَت، ولهذا إذا ذاق العبدُ طعمَ الإيمان وخالطت[٣] بشاشتُه قلبَه رسخَ فيه حبُّه، ولم يُؤْثِر عليه شيئًا أبدًا.

وفي «الصحيح» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرفوع: «**إنَّ الله عزَّ وجلَّ يسألُ الملائكة، فيقول: ما يسألني عبادي؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا يا ربِّ، فيقول: كيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشدَّ لها طلبًا**»[٤].

فاقتضت حكمتُه أنْ أراها أباهم وأسكنَه إيَّاها، ثم قَصَّ علىٰ بنيه قصَّتَه فصاروا كأنهم مشاهِدون لها حاضرون[٥] مع أبيهم، فاستجاب من خُلِقَ لها وخُلِقَت له، وسارع إليها، ولم يَثْنِه عنها العاجلة، بل يَعُدُّ نفسَه كأنه فيها ثم سَباه العدوُّ، فيراها وطنه الأوَّل وقد أُخرِجَ منه، فهو دائمُ الحنين إلىٰ وطنه،

= إلى الآيتين من سورة الأنبياء: ٣٧، والإسراء: ١١، إلا أن صواب الآية الثانية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

(١) (ت): «أشوف».

(٢) كذا في الأصول. عدىٰ الفعل بالباء.

(٣) (ق): «وخالط»، وفي (ح، ن): «وخالط بشاشة».

(٤) «صحيح البخاري» (٦٤٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٩).

(٥) (ق، ت): «مشاهدين لها حاضرين».

لا يقرُّ قرارُه حتىٰ يرىٰ نفسه فيه[1]، كما قيل[2]:

نَقِّل فُؤادكَ حيثُ شئتَ من الهوىٰ ... ما الحُبُّ إلا للحبيبِ الأوَّلِ
كم منزلٍ في الأرضِ يَألَفُه الفتىٰ ... وحنينُه أبدًا لأوَّلِ منزلِ

ولي من أبياتٍ تُلِمُّ بهذا المعنىٰ:

وحيَّ علىٰ جنَّاتِ عدنٍ فإنها ... منازلُك الأولىٰ وفيها المُخَيَّمُ
ولكنَّنا سبيُ العدوِّ فهل ترىٰ ... نعودُ إلىٰ أوطانِنا ونُسَلَّمُ[3]

* فسِرُّ هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالىٰ سبق في حُكمه وحكمته أنَّ الغاياتِ المطلوبة لا تُنال إلا بأسبابها التي جعلها اللهُ أسبابًا مفضيةً إليها، ومن تلك الغايات أعلىٰ أنواع النعيم وأفضلُها وأجلُّها، فلا تُنال إلا بأسبابٍ نَصَبَها مفضيةً إليها.

وإذا كانت الغاياتُ التي هي دون ذلك لا تُنال إلا بأسبابها ـ مع ضعفها وانقطاعها ـ، كتحصيل المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه في الدنيا؛ فكيف يُتَوَهَّم حصولُ أعلىٰ الغايات وأشرف المقامات بلا سببٍ يفضي إليه؟!

ولم يكن[4] تحصيلُ تلك الأسباب إلا في دار المجاهدة والحرث[5]؛

---

(١) (ق، ت): «فيها».

(٢) البيتان لأبي تمام في ديوانه (٤/ ٢٥٣)، و«أخباره» للصولي (٢٠٥) وغيرهما.

(٣) القصيدة بتمامها في «طريق الهجرتين» (١٠٨ ـ ١١٥). والمصنف كثيرُ الاستشهاد بالبيتين في كتبه.

(٤) كذا في الأصول بتقدير الخبر: ممكنًا. ولعلها: يمكن.

(٥) (د، ق): «والحرب». وهي قراءة محتملة، والمثبت أشبه.

فكان إسكانُ آدمَ وذريته هذه الدارَ التي ينالون فيها الأسبابَ الموصلةَ إلىٰ أعلىٰ المقامات من تمام إنعامه عليهم.

* **وسِرُّها أيضًا**: أنه سبحانه جعل الرسالةَ والنبوة، والخُلَّةَ والتكليم، والولايةَ والعبودية، من أشرف مقامات[1] خلقِه ونهاياتِ كمالهم؛ فأنزلهم دارًا أخرجَ منهم الأنبياء، وبعث فيها الرسل، واتَّخذ منهم من اتَّخذ خليلًا، وكلَّم موسىٰ تكليمًا، واتَّخذ منهم أولياءَ وشهداء، وعبيدًا وخاصَّة، يحبُّهم ويحبُّونه، وكان إنزالهُم إلىٰ الأرض من تمام الإنعام والإحسان.

* **وسِرُّها أيضًا**: أنه أظهَر لخلقه من آثار أسمائه وصفاته وجَرَيان أحكامها عليهم ما اقتضته حكمتُه ورحمتُه وعلمُه.

* **وسِرُّها أيضًا**: أنه تعرَّف إلىٰ خلقه بأفعاله وأسمائه وصفاته، وما أحدَثه في أوليائه وأعدائه، مِن كرامته وإنعامه علىٰ الأولياء، وإهانته وإشقائه[2] للأعداء، ومِن إجابته دعواتهم، وقضائه حوائجَهم، وتفريج كرباتهم، وكشفِ بلائهم، وتصريفهم تحت أقداره كيف يشاء، وتقليبهم في أنواع الخير والشر؛ فكان في ذلك أعظم دليلٍ لهم علىٰ أنه ربُّهم ومليكُهم، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وأنه العليمُ الحكيم، السميع البصير، وأنه الإلهُ الحقُّ وكلُّ ما سواه باطل.

فتظاهرت أدلةُ ربوبيته وتوحيده في الأرض، وتنوَّعت، وقامت من كلِّ جانب؛ فعرفَه الموفَّقون من عباده، وأقرُّوا بتوحيده إيمانًا وإذعانًا، وجحدَه

---

(١) (ح، ن): «أشرف مقامات». بدون «من».

(٢) (د، ق، ت): «وانتقامه».

المخذولون من خليقته، وأشركوا به ظلمًا وكفرانًا، فهلكَ من هلكَ عن بينةٍ وحيَّ من حيَّ عن بينة، والله سميعٌ عليم.

ومن تأمَّل آياته المشهودة والمسموعة في الأرض، ورأىٰ آثارَها، عَلِمَ تمامَ حكمته في إسكانِ آدمَ وذريته في هذه الدار إلىٰ أجلٍ معلوم؛ فالله سبحانه إنما خلقَ الجنة لآدمَ وذريته، وجعل الملائكةَ فيها خَدَمًا لهم، ولكن ٱقتضت حكمتُه أنْ خلقَ لهم دارًا يتزوَّدون منها إلىٰ الدار التي خُلِقَت لهم، وأنهم لا ينالونها إلا بالزَّاد، كما قال تعالىٰ في هذه الدار: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ٧]، فهذا شأنُ الانتقال في الدنيا من بلدٍ إلىٰ بلد، فكيف الانتقالُ من الدنيا إلىٰ دار القرار؟! وقال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فباع المغبونون منازلَهم منها بأبخس الحظِّ وأنقص الثمن، وباع الموفَّقون نفوسَهم وأموالهم من الله، وجعلوها ثمنًا للجنة؛ فربحت تجارتُهم، ونالوا الفوز العظيم، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فهو سبحانه ما أخرجَ آدمَ منها إلا وهو يريدُ أن يعيدَه إليها أكملَ إعادة[١]، كما قيل علىٰ لسان القدر[٢]: يا آدم! لا تجزَع من قولي لك: ٱخرُج

(١) (ت): «يعيده إليها فلذلك خلقها ليعيده إليها على أكمل إعادة».

(٢) أي: لسان الحال. كما عبَّر به المصنف في «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٦).

وانظر: «بدائع الفوائد» (١١٩٨)، و«الفوائد» (٥١)، و«عدة الصابرين» (١٠٩)، وما =

منها، فلك خلقتُها، فإني أنا الغنيُّ عنها وعن كلِّ شيء، وأنا الجوادُ الكريم، وأنا لا أتمتَّع فيها؛ فإني أُطْعِمُ ولا أُطْعَم، وأنا الغنيُّ الحميد، ولكن ٱنزِل إلىٰ دار البَذْر، فإذا بذَرْتَ فاستوىٰ الزَّرعُ علىٰ سُوقه وصار حَصِيدًا، فحينئذٍ فتعال فاسْتَوْفِه[1] أحوجَ ما أنت إليه، الحبة[2] بعشر أمثالها، إلىٰ سبع مئة ضعف، إلىٰ أضعافٍ كثيرة، فإني أعلمُ بمصلحتك منك، وأنا العليمُ الحكيم.

فإن قيل: ما ذكر تموه من هذه الوجوه وأمثالها إنما يتمُّ إذا قلتم[3]: إنَّ الجنة التي أُسْكِنَها آدمُ وأُهْبِط منها جنةُ الخلد التي أُعِدَّت للمتقين المؤمنين يوم القيامة، وحينئذٍ يظهرُ سرُّ إهباطه[4] وإخراجه منها. ولكن قد قالت طائفةٌ ـ منهم أبو مسلم[5]، ومنذرُ بن سعيد البلُّوطي[6]، وغيرهما ـ: إنها

= سيأتي من الكتاب (ص: ٨٣٠).

وهو أسلوبٌ معروفٌ في تصوير المعاني، واستعمال العلماء له لا يكادُ يأتي عليه الحصر. انظر: درء التعارض (١٠/ ٢٠٠)، ومجموع الفتاوى (١٢/ ٤٠٥).

(١) (ت): «فأسوقه».

(٢) (ت): «الحسنة».

(٣) (ق): «قيل».

(٤) (ح): «إهباط آدم».

(٥) محمد بن بحر الأصبهاني المعتزلي (ت: ٣٢٢)، له تفسيرٌ كبير، لم يصلنا. انظر: «معجم الأدباء» (٦/ ٢٤٣٦)، و«الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٤٤).

(٦) قاضي الجماعة بقرطبة (ت: ٣٥٥)، ترجمته في «السير» (١٦/ ١٧٣)، ومصادرها في حاشيته. وكتابه في التفسير لم يعثر عليه بعد. وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ١٧٦) أن له مصنفًا مفردًا في هذه المسألة، ولعله من مصادر المصنف.

وقد كان متَّهمًا بالاعتزال كما ذكر ابن حزم في «طوق الحمامة» (٤٥)، منحرفًا إلى مذهب أهل الكلام كما ذكر ابن الفرضي في «تاريخ علماء الأندلس» (٢/ ١٤٤). ولا =

إنما كانت جنةً في الأرض في موضعٍ عالٍ منها، لا أنها جنةُ المأوىٰ التي أعدَّها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة.

وذكر منذر بن سعيد هذا القول في «تفسيره» عن جماعة، فقال: «وأما قولُه لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾:

فقالت طائفة: أسكن اللهُ تعالىٰ آدمَ ﷺ جنةَ الخلد التي يدخلُها المؤمنون يوم القيامة.

وقال آخرون: هي جنةٌ غيرُها جعلها الله له، وأسكنه إيَّاها، ليست جنة الخلد».

قال: «وهذا قولٌ تكثرُ الدلائلُ الشاهدة له، والموجبةُ للقول به؛ لأنَّ الجنةَ التي تُدْخَلُ بعد القيامة هي من حيِّز الآخرة[1]، وفي اليوم الآخر تُدْخَل؛ ولم يأتِ بعد، وقد وصفها الله لنا في كتابه بصفاتها، ومحالٌ أن يصفَ الله شيئًا بصفةٍ ثمَّ يكون ذلك الشيءُ بغير تلك الصفة التي وصفها به، والقولُ بهذا دافعٌ لما أخبر اللهُ به».

قالوا: وجدنا الله تبارك وتعالىٰ وصَف الجنة التي أعدَّت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المُقامة، ولم يُقِم آدمُ فيها.

= أراه كذلك، ولا أحسب التهمة لحقته إلا من قِبَل قوله بهذه المسألة ونظائرها مما وافق اجتهادُه فيه مقالاتٍ ٱشتهرت عن المعتزلة وليست من أصولهم، وقد ذُكِر أن له تصانيف في الرد على أهل الأهواء والبدع، كما في «مطمح الأنفس» (٢٣٨)، و«نفح الطيب» (١/ ٣٧٢)، ومنها فتوى في الردِّ على القول بخلق القرآن، نشرها عبد الرحمن الهيباوي ملحقةً بترجمته التي صنعها له (ص: ١٤٥).

(١) (ق، ت): «خير الآخرة».

ووصَفها بأنها جنةُ الخلد، ولم يخلَّد آدمُ فيها.

ووصَفها بأنها دارُ جزاء، ولم يقل: إنها دارُ ابتلاء، وقد ٱبتلي آدمُ فيها بالمعصية والفتنة.

ووصَفها بأنها ليس فيها حَزَن، وأنَّ الداخلين إليها يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقد حَزِنَ فيها آدم.

ووجدناه سمَّاها: ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، ولم يَسْلَم فيها آدمُ من الآفات التي تكونُ في الدنيا.

وسمَّاها: ﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾، ولم يستقرَّ فيها آدم.

وقال فيمن يدخلها: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: ٤٨]، وقد أُخرِجَ منها آدمُ بمعصيته.

وقال: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحِجر: ٤٨]، وقد نَدَّ[١] آدمُ فيها هاربًا فارًّا عند إصابته المعصية، وطَفِقَ يخصِفُ ورَقَ الجنة علىٰ نفسه، وهذا النَّصَبُ بعينه الذي نفاه الله عنها.

وأخبرَ أنه لا يُسْمَعُ فيها لغوٌ ولا تأثيم، وقد أَثِمَ فيها آدم، وأُسْمِعَ فيها ما هو أكبر من اللغو، وهو أنه أُمِرَ فيها بمعصية ربه.

وأخبرَ أنه لا يُسْمَعُ فيها لغوٌ ولا كِذَّاب[٢]، وقد أسمعه فيها إبليسُ الكذب، وغرَّه وقاسمه عليه أيضًا بعد أن أسمعه إياه.

---

(١) مضبوطة في (د، ق). ندَّ البعيرُ: شَرَد وذهب على وجهه.

(٢) (ح): «كذابا». وفي (ق): «كذب».

وقد شربَ آدمُ من شرابها الذي سمَّاه في كتابه: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، أي: مُطهِّرًا من جميع الآفات المذمومة، وآدمُ لم يطهَّر من تلك الآفات.

وسمَّاها الله تعالىٰ: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾، وقد كَذَبَ إبليسُ فيها آدمَ، ومقعدُ الصِّدق لا كذبَ فيه.

وعِلِّيُّون لم يكن فيها ٱستحالةٌ قطُّ ولا تبديل، ولا يكونُ بإجماع المصلِّين، والجنةُ في أعلىٰ عليين.

والله تعالىٰ فإنما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولم يقل: إني جاعلٌ[1] في جنة المأوىٰ، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، والملائكةُ أتقىٰ لله من أن تقول ما لا تعلم، وهم القائلون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، وفي هذا دلالةٌ علىٰ أنَّ الله قد كان أعلَمهم أنَّ بني آدم سيفسدون في الأرض، وإلا فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون، والله تعالىٰ يقول ـ وقوله الحق ـ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، والملائكةُ لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمرُ به لا غير، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

والله تعالىٰ أخبرنا أنَّ إبليس قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، فإن كان الله أسكن آدمَ جنةَ الخلد والـمُلكَ الذي لا يبلىٰ، فكيف لم يردَّ عليه نصيحتَه ويكذِّبه في قوله، فيقول: وكيف تدلُّني علىٰ شيءٍ أنا فيه وقد أُعطِيتُه واحتزتُه[2]؟!

---

(١) (ت، د، ن): «جاعله».

(٢) مهملة في (د، ق). وساقطة من (ت). والمثبت من (ح، ن).

بل كيف لم يَحْثُ الترابَ في وجهه ويسبَّه؟!؛ لأنَّ إبليس ليس كان يكون بهذا الكلام مُغْوِيًا له، إنما كان يكون زاريًا عليه[1]؛ لأنه إنما وعده علىٰ معصية ربه بما كان فيه لا زائدًا عنه، ومثلُ هذا لا يخاطَبُ به إلا المَجانين الذين لا يعقِلون؛ لأنَّ العِوَض الذي وعَده به بمعصية ربه قد كان أحرزه، وهو الخلدُ والمُلْكُ الذي لا يبلىٰ.

ولم يخبر اللهُ آدمَ إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين، ولو كان فيها من الخالدين لما رَكَنَ إلىٰ قول إبليس، ولا قَبِلَ نصيحتَه، ولكنه لما كان في غير دار خلودٍ غَرَّه بما أطمَعه فيه من الخُلد، فقَبِل منه، ولو أخبر اللهُ آدمَ أنه في دار الخُلد ثمَّ شكَّ في خبر ربه لسمَّاه كافرًا، ولما سمَّاه عاصيًا؛ لأن من شكَّ في خبر الله فهو كافر، ومن فعَل غيرَ ما أمره الله به وهو معتقدٌ للتصديق لخبر ربه فهو عاصٍ، وإنما سمَّىٰ اللهُ آدمَ عاصيًا ولم يسمِّه كافرًا.

قالوا: فإن كان آدمُ أُسكِن جنة الخُلد، وهي دارُ القُدس التي لا يدخلها إلا طاهرٌ مقدَّس؛ فكيف توصَّل إليها إبليسُ الرجسُ النجسُ الملعونُ المذمومُ المدحور حتىٰ فَتَنَ فيها آدم؟!

وإبليسُ فاسقٌ قد فسق عن أمر ربه، وليست جنةُ الخلد دارَ الفاسقين، ولا يدخلها فاسقٌ بتَّةً، إنما هي دارُ المتقين، وإبليس غيرُ تقيٍّ، فبعد أن قيل له: ٱهبِط[2] منها فما يكونُ لك أن تتكبَّر فيها، أيُفْسَحُ له[3] أن يرقىٰ إلىٰ جنة المأوىٰ فوق السماء السابعة بعد السخط والإبعاد له بالعُتُوِّ والاستكبار؟!

---

(١) أي: عائبًا محتقرًا له، مستخفًّا به.

(٢) كذا في الأصول، على سبيل الاستشهاد، لا التلاوة.

(٣) (ق): «انفسح له».

هذا مضادٌّ لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فإن كانت مخاطبتُه آدمَ بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبُّرًا فليس تَعْقِلُ العربُ التي نزل القرآن بلسانها ما التكبُّر!

ولعل من ضَعُفَت رويَّته وقَصُرَ بحثُه[1] أن يقول: إنَّ إبليسَ لم يَصِل إليها، ولكنَّ وسوستَه وصلت!

فهذا قولٌ يُشْبِهُ قائلَه، ويُشاكِلُ مُعتقِدَه، وقولُ الله تعالىٰ حكمٌ بيننا وبينه، وقولُه تعالىٰ: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ يردُّ ما قال؛ لأنَّ المقاسَمة ليست وسوسة، ولكنَّها مخاطبةٌ ومشافَهة، ولا تكونُ إلا من ٱثنين، شاهدَين[2] غير غائبَين، ولا أحدهما.

ومما يدلُّ علىٰ أنَّ وسوستَه كانت مخاطبةً قولُ الله تعالىٰ: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ الآية، فأخبر أنه قال له، ودلَّ ذلك علىٰ أنه إنما وسوسَ إليه مخاطبةً، لا أنه أوقَع ذلك في نفسه[3] بلا مقاوَلة، فمن ٱدَّعىٰ علىٰ الظاهر تأويلًا ولم يُقِم عليه دليلًا لم يجب قبولُ قوله.

وعلىٰ أنَّ الوسوسة قد تكونُ كلامًا مسموعًا أو صوتًا قال رؤبة[4]:

* وَسْوَسَ يدعو مُخْلِصًا ربَّ الفَلَق *

---

(١) (ت، ن، ح): «وقصر به بحثه».

(٢) (ق): «وشاهدين».

(٣) (ت، ح، ن): «بنفسه».

(٤) ديوانه (١٠٨).

وقال الأعشىٰ(1):

تَسْمَعُ للحَلْيِ وَسْواسًا إذا انصَرَفَتْ   كما اسْتعانَ بريحٍ عِشْرقٌ زَجِلُ

قالوا: وفي قول إبليس لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠] دليلٌ علىٰ مشاهدته لهما وللشجرة.

ولما كان آدمُ خارجًا من الجنة وغير ساكنٍ فيها قال الله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولم يقل: «عن هذه الشجرة»، كما قال له إبليس؛ لأنَّ آدم لم يكن حينئذٍ في الجنة ولا مشاهدًا للشجرة.

مع قوله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]؛ فقد أخبَر سبحانه خبرًا محكمًا غير مشتبهٍ أنه لا يصعدُ إليه إلا كلمٌ طيبٌ وعملٌ صالح، وهذا مما قدَّمنا ذكرَه، أنه لا يَلِجُ المقدَّسَ المطهَّر إلا مقدَّسٌ مطهَّرٌ طيِّب، ومعاذَ الله أن تكون وسوسةُ إبليسَ مقدَّسةً أو طاهرةً أو خيرًا، بل هي شرٌّ كلُّها، وظلمةٌ وخبثٌ ورجس. تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وكما أنَّ أعمال الكافرين لا تَلِجُ القُدسَ الطاهرَ ولا تَصِلُ إليه؛ لأنها خبيثةٌ غيرُ طيبة، كذلك لا تَصِلُ ـ ولم تَصِل ـ وسوسةُ إبليس، ولا ولجت القُدس؛ قال الله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧].

---

(1) ديوانه (٥٥)، من معلَّقته. والوسواس: صوت جَرْسِ الحلي. والعِشْرِق: نبتٌ له ورق، إذا يبس أطارته الريحُ، فأسمعَتْ له زجلًا (صوتًا).

وقد رُوِي عن النبي ﷺ أنَّ آدم نامَ في جنته[1]، وجنةُ الخلد لا نوم فيها بإجماع المسلمين[2]؛ لأنَّ النومَ وفاة، وقد نطق به القرآن[3]، والوفاةُ تقلُّب حال، ودارُ السَّلام مسلَّمةٌ من تقلُّب الأحوال، والنائمُ ميِّتٌ أو كالميِّت.

قالوا: وقد رُوِي عنه ﷺ أنه قال لأمِّ حارثة لما قالت له: يا رسول الله، إنَّ حارثة قُتِلَ معك، فإن كان صار إلىٰ الجنة صبرتُ واحتسبت، وإن كان صار إلىٰ ما سوىٰ ذلك رأيتَ ما أفعل، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**أو جنةٌ واحدةٌ هي؟!، إنما هي جِنانٌ كثيرة**»[4].

فأخبر ﷺ أنَّ لله جنَّاتٍ كثيرة؛ فلعلَّ آدم أسكنه الله جنةً من جناته ليست هي جنة الخلد.

---

(١) لم أقف عليه مرفوعًا.

وورد موقوفًا على بعض أصحاب النبي ﷺ، رواه السدي في تفسيره، ومن طريقه الطبري (١/ ٥١٣)، وابن منده في «التوحيد» (١/ ٢١٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، وغيرهم.

وفي تفسير السدي نظر، وقد استعظم الإمام أحمد صنيعه في سياق أسانيده، ثم إن في راويه عنه أسباط بن نصر ضعفًا. انظر: «الضعفاء» للعقيلي (١/ ٨٨)، ومنتخب «الإرشاد» للخليلي (٣٩٨). ولم يعبأ بذلك ابن منده، فقال: «هذا إسنادٌ ثابت».

وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر على «تفسير الطبري» (١/ ١٥٦-١٦٠).

وورد مقطوعًا من قول مجاهد، ومحمد بن إسحاق، والسدي، عند الطبري في «التفسير» (١/ ٥١٤، ٧/ ٥١٥)، و«التاريخ» (١/ ١٠٤).

(٢) (ق، ح، ن): «من المسلمين».

(٣) يشير إلى قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الآية: ٤٢].

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٠٩، ٣٩٨٢) من حديث أنس.

قالوا[1]: وقد جاء في بعض الأخبار أنَّ جنة آدم كانت بأرض الهند[2].

قالوا: وهذا وإن كان لا يصحِّحه رواةُ الأخبار ونقلة الآثار، فالذي تقبلُه الألبابُ ويشهدُ له ظاهرُ الكتاب أنَّ جنة آدم ليست جنةَ الخلد ولا دارَ البقاء، وكيف يجوزُ أن يكون اللهُ أسكنَ آدمَ جنةَ الخلد ليكون فيها من الخالدين، وهو القائل للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؟!

وكيف أخبرَ الملائكةَ أنه يريدُ أن يجعل في الأرض خليفة، ثم يُسْكِنُه دارَ الخلود، ودارُ الخلود لا يدخلُها إلا من يخلُد فيها، كما سُمِّيت بدار الخلود؟![3]

فقد سمَّاها الله بالأسماء التي تقدَّم ذِكْرُنا لها[4] تسميةً مطلقةً لا خصوص فيها، فإذا قيل للجنة: «دار الخُلد» لم يَجُزْ أن يُنْقَض مسمَّىٰ هذا الاسم بحال.

---

(١) في (ت، ن) ههنا زيادة: «وقد جاء في الأخبار أنها ليست جنة الخلد». والسياقُ يأباها.

(٢) لم أقف على شيءٍ منها. لكن وردت آثارٌ عن جماعةٍ من الصحابة والتابعين في أن الهند هي الموضعُ الذي أُهبِط آدمُ إليه من الأرض، ولعلها من أخبار أهل الكتاب. انظر: «مستدرك الحاكم» (٢/ ٥٤٢)، و«مصنف عبد الرزاق» (٥/ ٩٣، ١١٦)، و«تاريخ الطبري» (١/ ١٢١)، و«الدر المنثور» (١/ ٥٥).
وروي في ذلك شيءٌ مرفوع، لكنه لم يثبت. انظر: «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٣٧)، و«كنز العمال» (٢/ ٣٥٨)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٠٣).

(٣) كذا قرأتُ الجملة الأخيرة. ويحتمل أن تكون متعلِّقة بما بعدها.

(٤) وهي: «دار الخلود» و«دار السلام» و«دار القرار» و«مقعد صدق».

فهذا بعضُ ما ٱحتجَّ به القائلون بهذا المذهب.

وعلىٰ هذا، فإسكانُ آدمَ وذريته في هذه الجنة لا ينافي كونهم في دار الابتلاء والامتحان، وحينئذٍ فكانت[1] تلك الوجوهُ والفوائدُ التي ذكرتموها ممكنةَ الحصول في الجنة.

فالجوابُ أن يقال: هذا فيه قولان للناس، ونحن نذكرُ القولين، واحتجاجَ الفريقين، ونبينُ ثبوتَ الوجوه التي ذكرناها وأمثالها علىٰ كلا القولين.

ونذكرُ أوَّلًا قول من قال: إنها جنةُ الخلد التي وَعَدَها الله المتقين، وما ٱحتجُّوا به، وما نقضوا به حججَ من قال: إنها غيرها، ثمَّ نتبعُه مقالةَ الآخرين وما احتجُّوا به، وما أجابوا به عن حجج منازعيهم، من غير ٱنتصابٍ لنصرةِ أحد القولين وإبطال الآخر؛ إذ ليس غرضُنا ذلك، وإنما الغرضُ ذكرُ بعض الحِكَم والمصالح المقتضية لإخراج آدمَ من الجنة، وإسكانه في الأرض في دار الابتلاء والامتحان.

وكان الغرضُ بذلك الردَّ علىٰ من زعم أنَّ حكمة الله سبحانه تأبىٰ إدخالَ آدمَ الجنة وتعريضَه للذنب الذي أُخْرِجَ منها به، وأنه أيُّ فائدةٍ في ذلك، والردَّ علىٰ من أبطل أن يكون له في ذلك حكمة، وإنما هو صادرٌ عن محض المشيئة التي لا حكمة وراءها.

ولما كان المقصودُ حاصلًا علىٰ كلِّ تقدير ـ سواءٌ كانت جنةَ الخلد أو غيرها ـ بنَينا الكلامَ علىٰ التقديرين، ورأينا أنَّ الردَّ علىٰ هؤلاء بدبُّوس

---

(١) (ق، ن): «كانت».

الشِّلاق[1] لا يحصِّلُ غرضًا[2] ولا يزيلُ مرضًا، فسلكنا هذا السبيلَ ليكون قولهم مردودًا علىٰ كلِّ قولٍ من أقوال الأمة[3]، والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فنقول: أما ما ذكرتموه من كون الجنة التي أُهبِط منها آدمُ ليست جنةَ الخلد، وإنما هي جنةٌ غيرها، فهذا مما قد ٱختلف فيه الناس[4]، والأشهَر عند الخاصَّة والعامة الذي لا يخطرُ بقلوبهم سواه أنها جنة الخُلد التي أُعِدَّت للمتقين، وقد نصَّ غيرُ واحدٍ من السَّلف علىٰ ذلك.

---

(١) سيأتي تفسيره (ص: ١٠٣٥).

(٢) (ق): «يحصل غرضًا»، بالإثبات. والصواب المثبت.

(٣) (ق): «الأئمة».

(٤) انظر: «حادي الأرواح» (٤٥ - ٩٠)، و«البداية والنهاية» (١/ ١٧٥ - ١٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٥٨)، و«تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١/ ١٠٦)، و«حقائق التأويل» للشريف الرضي (٢٤٦)، و«أعلام النبوة» للماوردي (٥٤)، و«مفاتيح الأسرار» للشهرستاني (١/ ٢٨٢، ٢٨٧)، و«التبيان» للطوسي (١/ ١٣٥، ١٥٦، ٤/ ٣٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٣٠٢)، و«البحر المحيط» (١/ ١٥٦)، و«روح المعاني» (١/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٤٣٠)، و«تفسير المنار» (١/ ٢٧٧)، و«محاسن التأويل» (٢/ ١١١)، و«إكمال المعلم» (٦/ ٣٠٦، ٨/ ١٣٨)، و«فتح الباري» (١١/ ٥٢٠)، و«التيجان» لابن هشام (١٨)، و«شمس العلوم» لنشوان (٦٨٥٩)، و«البدء والتاريخ» (٢/ ٨٤)، و«اللمعة البيضاء» للتبريزي (٤٢٢)، وفي حاشية الأخير مواضع المسألة في كتب الشيعة. وانظر المصادر الآتية في التعليقات.
وهو خلافٌ ينبغي فصلُه والخروجُ منه، كما قال ابن كثير، وإن لم تكن المسألة من أصول العلم.

واحتجَّ من نصر هذا بما رواه مسلمٌ في «صحيحه»[1] من حديث أبي مالكٍ الأشجعيِّ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة. وأبي مالك عن رِبْعِيِّ بن حِرَاش، عن حذيفة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يجمعُ الله عز وجل النَّاس، فيقومُ المؤمنون حتىٰ تُزْلَفَ لهم الجنة، فيأتون آدمَ عليه السلام، فيقولون: يا أبانا ٱستفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجَكم من الجنة إلا خطيئةُ أبيكم آدم؟...**» وذكر الحديث.

قالوا: فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الجنة التي أُخْرِج منها آدمُ هي بعينها التي يُطلبُ منه أن يستفتحها لهم.

قالوا: ويدلُّ عليه أنَّ الله سبحانه قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هبوطَهم[2] كان من الجنة إلىٰ الأرض، من وجهين:

أحدهما: من لفظ قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾، فإنَّ الهبوطَ نزولٌ من عُلْوٍ إلىٰ سُفْلٍ[3].

والثاني: قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ عقيب قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾، فدلَّ علىٰ أنهم لم يكونوا أوَّلًا في الأرض.

وأيضًا؛ فإنه سبحانه وصَف الجنةَ التي أُسْكِنَها آدمُ بصفاتٍ لا تكونُ في الجنة الدنيوية، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ

---

(١) (١٩٥).

(٢) (ق): «هبوطه».

(٣) (ق، ن): «سفول». (ح): «أسفل».

﴿فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨- ١١٩]، وهذا لا يكونُ في الدنيا أصلًا، ولو كان الرجلُ في أطيب منازلها فلا بدَّ أن يَعْرِض له الجوعُ والظَّمأُ والعُرْي[١] والضُّحِيُّ للشمس.

وأيضًا؛ فإنها لو كانت الجنةُ في الدنيا لعَلِمَ آدمُ كذبَ إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾؛ فإنَّ آدمَ كان يعلم أنَّ الدنيا منقضيةٌ فانية، وأنَّ مُلْكَها يبلىٰ.

وأيضًا؛ فإنَّ قصَّة آدمَ في «البقرة» ظاهرةٌ جدًّا في أنَّ الجنة التي أُخْرِجَ منها فوق السَّماء؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٤ - ٣٧]، فهذا إهباطُ آدمَ وحوَّاءَ وإبليسَ من الجنة، ولهذا أتىٰ فيه بضمير الجمع[٢].

وقيل: إنه خطابٌ لهم[٣] وللحيَّة. وهذا يحتاجُ إلىٰ نقلٍ ثابت؛ إذ لا ذكر للحية في شيءٍ من قصَّة آدم وإبليس.

وقيل: خطابٌ لآدم وحوَّاء، وأتىٰ فيه بلفظ الجمع؛ كقوله تعالىٰ:

---

(١) (ق): «والتعري».

(٢) (د، ت): «بصيغة الجمع».

(٣) (ت): «لآدم وحواء».

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

وقيل: لآدم وحوَّاء وذريتهما.

وهذه الأقوالُ ضعيفةٌ غير الأول؛ لأنها بين قولٍ لا دليل عليه، وبين ما يدلُّ ظاهرُ الخطاب علىٰ خلافه؛ فثبت أنَّ إبليس داخلٌ في هذا الخطاب، وأنه من الـمُهْبَطين من الجنة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وهذا الإهباطُ الثاني لا بدَّ أن يكون غيرَ الأوَّل، وهو إهباطٌ من السماء إلىٰ الأرض؛ وحينئذٍ فتكون الجنةُ التي أُهْبِطوا منها أوَّلًا فوق السماء، وهي جنةُ الخلد.

وقد ذهبت طائفةٌ ــ منهم الزمخشريُّ ــ إلىٰ أنَّ قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ خطابٌ لآدم وحوَّاء خاصَّة، وعبَّر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذريَّاتهما[(١)].

قال: «والدليلُ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾».

قال: «ويدلُّ علىٰ ذلك قولُه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩]، وما هو إلا حكمٌ يعمُّ الناسَ كلهم، ومعنىٰ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

(١) (ح، ن): «ذريتهما».

﴿عَدُوٌّ﴾ ما عليه الناسُ من التعادي والتباغض وتضليل بعضهم لبعض»[1].

وهذا الذي آختاره أضعفُ الأقوال في الآية؛ فإنَّ العداوةَ التي ذكرها اللهُ في كتابه[2] إنما هي بين آدم وإبليس وذرياتهما، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦][3]، وأمَّا آدمُ وزوجُه فإنَّ الله سبحانه أخبر في كتابه أنه خلقها منه ليَسْكُنَ إليها، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فهو سبحانه جعَل المودةَ بين الرجل وزوجه، وجعل العداوة بين آدمَ وإبليسَ وذرياتهما.

ويدلُّ عليه ـ أيضًا ـ عَوْدُ الضَّمير إليهم بلفظ الجمع، وقد تقدَّم ذكرُ آدمَ وزوجه وإبليس في قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، فهؤلاء ثلاثة: آدم، وزوجه، وإبليس؛ فلماذا يعودُ الضميرُ علىٰ بعض المذكور[4] مع منافرته لطريق الكلام، ولا يعودُ علىٰ جميع المذكور مع أنه وَجْهُ الكلام؟!

فإن قيل: فما تصنعون بقوله في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وهذا خطابٌ لآدم وحوَّاء، وقد أخبر بعداوة بعضهم بعضًا؟

---

(١) «الكشاف» (١/ ١٢٨).

(٢) «في كتابه» من (ت) فقط.

(٣) في (ق) هنا زيادة: «ولا عدو» ولا معنى لها.

(٤) (ت): «المذكورين». وضرب على الياء والنون في (د).

قيل: إما أن يكون الضميرُ في قوله: ﴿ٱهۡبِطَا﴾ راجعًا إلىٰ آدمَ وزوجِه، أو يكون راجعًا إلىٰ آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجةَ لأنها تَبَعٌ له.

وعلىٰ الثاني؛ فالعداوةُ المذكورةُ للمخاطَبين بالإهباط، وهما آدمُ وإبليس.

وعلىٰ الأول؛ تكون الآيةُ قد ٱشتملت علىٰ أمرين:

أحدهما: أمرُه لآدمَ وزوجِه بالهبوط.

والثاني: جعلُه العداوةَ بين آدمَ وزوجه وإبليس. ولا بدَّ أن يكون إبليس داخلًا في حكم هذه العداوة قطعًا، كما قال تعالىٰ له[1]: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقال لذريته: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وتأمَّل كيف ٱتفقت المواضعُ التي فيها العداوةُ علىٰ ضمير الجمع دونَ التثنية، وأما ذِكرُ الإهباط فتارةً يأتي بلفظ ضمير الجمع، وتارةً بلفظ التثنية، وتارةً يأتي بلفظ الإفراد لإبليسَ وحده، كقوله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فهذا الإهباطُ لإبليس وحده، والضميرُ في قوله: ﴿مِنۡهَا﴾ قيل: إنه عائدٌ إلىٰ الجنة. وقيل: عائدٌ إلىٰ السماء.

وحيث أتىٰ[2] بصيغة الجمع، كان لآدمَ وزوجِه وإبليس؛ إذ مدارُ القصَّة عليهم.

---

(١) أي: لآدم. وسقطت «له» من (ق).

(٢) أي: الضمير في ذكر الإهباط.

وحيثُ أتىٰ بلفظ التثنية، فإمَّا أن يكون لآدمَ وزوجِه ـ إذ هما اللذان باشرا الأكلَ من الشجرة وأقدما علىٰ المعصية ـ، وإمَّا أن يكون لآدمَ وإبليس ـ إذ هما أبوَا الثقلين ـ، فذكر حالهما وما آل إليه أمرُهما؛ ليكون عظةً وعبرةً لأولادهما. والقولان محكيَّان في ذلك.

وحيث أتىٰ بلفظ الإفراد، فهو لإبليسَ وحدَه.

وأيضًا؛ فالذي يوضِّح أنَّ الضمير في قوله: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ لآدمَ وإبليس: أنَّ الله سبحانه لـمَّا ذكَر المعصية أفردَ بها آدمَ دون زوجِه، فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ المخاطَب بالإهباط هو آدمُ ومن زيَّن له المعصية، ودخلت الزوجةُ تبعًا.

وهذا لأنَّ المقصودَ إخبارُ الله تعالىٰ لعباده المكلفين من الجنِّ والإنس بما جرىٰ علىٰ أبويهما من شُؤم المعصية ومخالفة الأمر؛ لئلَّا يقتدوا بهما في ذلك؛ فذِكْرُ أبوي الثَّقلين أبلغُ في حصول هذا المعنىٰ من ذكر أبوي الإنس فقط.

وقد أخبرَ الله سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم، وأخبرَ أنه أهبطَه وأخرجَه[1] من الجنة بتلك الأكلة؛ فعُلِمَ أنَّ هذا ٱقتضاءُ حكم الزوجة، وأنها صارت إلىٰ ما صار إليه آدم؛ فكان تجريدُ العناية إلىٰ ذِكر حال الأبوين اللذين هما أصلُ الذرية أولىٰ من تجريدها إلىٰ ذكر أبي الإنس وأمِّهم، والله أعلم.

---

(١) (ح): «أهبطها وأخرجها».

وبالجملة؛ فقولُه: ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ظاهرٌ في الجمع، فلا يسوغُ حملُه علىٰ الاثنين في قوله: ﴿ٱهْبِطَا﴾.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنه كيف وسوسَ لهما بعد إهباطه من الجنة؟ و محالٌ أن يصعدَ إليها بعد قوله تعالىٰ له: ﴿ٱهْبِطْ مِنْهَا﴾.

فجوابُه من وجوه(١):

أحدها: أنه أُخرِجَ منها ومُنِعَ من دخولها علىٰ وجه السُّكنىٰ والكرامة واتخاذها دارًا، فمن أين لكم أنه مُنِعَ من دخولها علىٰ وجه الابتلاء والامتحان لآدمَ وزوجِه؟! ويكونُ هذا دخولًا عارضًا كما يدخل الشُّرَطُ دارَ من أُمِروا بابتلائه و محنته، وإن لم يكونوا أهلًا لسكنىٰ تلك الدار.

الثاني: أنه كان يدنو من السماء فيكلِّمُهما ولا يدخلُ عليهما دارَهما.

الثالث: أنه لعله قام علىٰ الباب فناداهما وقاسَمَهما ولم يَلِجِ الجنة.

الرابع: أنه قد رُوِي أنه أراد الدخولَ عليهما، فمنعته الخَزَنة، فدخل في فم الحيَّة حتىٰ دخلت به عليهما، ولا يشعرُ الخزنةُ بذلك(٢).

قالوا: و مما يدلُّ علىٰ أنها جنةُ الخلد بعينها أنها جاءت مُعَرَّفةً بلام التعريف في جميع المواضع، كقوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، ولا جنةَ يعهدُها المخاطَبون ويعرفونها إلا جنةَ الخُلدِ التي وَعَدَ الرحمنُ عبادَه

---

(١) هذا جواب الزمخشري في «الكشاف» (١/ ١٢٨).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١/ ٢٢٧) عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ من وجهٍ لا يثبت. وانظر تعليق الطبري على ما تضمنته هذه الرواية في (١/ ٥٣٢).

بالغيب، فقد صار هذا الاسمُ عَلَمًا عليها بالغَلَبة، وإن كان في أصل الوضع[1] عبارةً عن البستان ذي الثمار والفواكه، وهذا كالمدينة لـ «طيبة» والنجم لـ «الثريا»، ونظائرها.

فحيثُ ورد اللفظُ معرَّفًا بالألف واللام ٱنصرف إلىٰ الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين، وأما إن أريد به جنةٌ غيرها فإنها تجيء منكَّرة، كقوله: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، أو مقيَّدةً بالإضافة، كقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: ٣٩]، أو مقيَّدةً من السِّياق بما يدلُّ علىٰ أنها جنةٌ في الأرض، كقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧] الآيات؛ فهذا السِّياقُ والتقييدُ يدلُّ علىٰ أنها بستانٌ في الأرض.

قالوا: وأيضًا؛ فإنه قد ٱتفق أهلُ السنة والجماعة علىٰ أنَّ الجنة والنار مخلوقتان، وقد تواترت الأحاديثُ عن النبي ﷺ بذلك، كما في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداة والعشيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدُك حتىٰ يبعثك الله يوم القيامة**»[2].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدريِّ عن النبي ﷺ قال: «**ٱختصمت الجنةُ والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلُني إلا ضعفاءُ النَّاس وسَقَطُهم؟ وقالت النار: ما لي لا يدخلُني إلا الجبَّارون والمتكبِّرون؟ فقال**

---

(١) (ت): «في نفس الأمر».

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٦٦).

للجنة: أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أعذِّبُ بك من أشاء» الحديث[1].

وفي «السنن» عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنةَ والنار أرسل جبريل إلىٰ الجنة فقال: ٱذهب فانظر إليها وإلىٰ ما أعددتُ لأهلها. قال: فذهبَ فنظر إليها وإلىٰ ما أعدَّ الله لأهلها...» الحديث[2].

وفي «الصحيحين»[3] في حديث الإسراء: «ثمَّ رُفِعَت لي سِدْرةُ المنتهىٰ، فإذا ورقُها مثل آذان الفُيول، وإذا نَبِقُها مثل قِلال هَجَر، وإذا أربعةُ أنهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أمَّا النهران الظاهران فالنيلُ والفرات، وأمَّا الباطنان فنهران في الجنة».

وفيه أيضًا: «ثمَّ أُدْخِلتُ الجنة، فإذا جَنابِذُ اللؤلؤ[4]، وإذا ترابها المسك»[5].

وفي «صحيح البخاري»[6] عن أنس عن النبي ﷺ قال: «بينا أنا أسيرُ في الجنة إذا أنا بنهرٍ حافَتاه قِبابُ الدُّرِّ المُجَوَّف، قال: قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاك ربُّك. فضرب المَلَكُ بيده فإذا طينُه

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي (٣٧٧٢)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٧٣٩٤)، والحاكم (١/ ٢٦) ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) «البخاري» (٣٢٠٧)، و«مسلم» (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

(٤) جمع جُنْبُذَة. وهي القُبَّة. «النهاية» (١/ ٣٠٥).

(٥) «البخاري» (٣٤٩)، و«مسلم» (١٦٣) من حديث أبي ذر.

(٦) (٦٥٨١).

مِسكٌ أَذْفَر».

وفي «صحيح مسلم»[1] في حديث صلاة الكسوف أنَّ النبي ﷺ جعل يتقدَّمُ ويتأخَّرُ في الصلاة، ثم أقبل علىٰ أصحابه، فقال: «**إنه عُرِضَت عليَّ الجنةُ والنار، فقُرِّبت منِّي الجنة حتىٰ لو تناولتُ منها قِطْفًا لأخذتُه، فلو أخذتُه لأكلتُم منه ما بَقِيَت الدنيا**».

وفي «صحيح مسلم»[2] عن ٱبن مسعودٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]: أنَّ «**أرواحهم في جوف طيرٍ خُضر، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرش، تسرَحُ من الجنة حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلىٰ تلك القناديل، فاطَّلع عليهم ربُّك ٱطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ فقالوا: أيَّ شيءٍ نشتهي ونحن نسرحُ من الجنة حيث شئنا؟!...**» الحديث.

وفي الصحيح[3] من حديث ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لما أصيبَ إخوانُكم بأحدٍ جعل الله أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضرٍ تَرِدُ أنهارَ**

---

(١) (٩٠١، ٩٠٤، ٩٠٧) بنحوه. وورد الحديث في (ت، ق) مختصرًا.

(٢) (١٨٨٧). والظاهر أنه من كلام النبي ﷺ، ولم يصرِّح بذلك ابن مسعود لظهور العلم به وأن الوهم لا يذهب إلى سواه، ثم لشدة ٱحتياطه وتحريه في رفع الحديث.
انظر: «شرح مسلم» للنووي (٧/ ٣٤)، و«تهذيب سنن أبي داود» للمصنف (٧/ ١٤٠)، و«المغني عن حمل الأسفار» للعراقي (٢/ ٢٥٥).
وقال المزي في «تحفة الأشراف» (٧/ ١٤٥): «موقوف».

(٣) (ت): «الصحيحين». ولم أقف على الحديث فيهما. وقد استدركه الحاكم كما سيأتي. فلعل المصنف أراد صحة الحديث فحسب.

الجنة، وتأكلُ من ثمارها، وتأوي إلىٰ قناديل من ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرش، فلما وجدوا طِيبَ مأكلهم ومشربهم ومَقِيلهم، قالوا: من يُبَلِّغ عنَّا إخواننا أنَّا في الجنة نُرزَق؛ لئلَّا يزهَدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلوا عن الحرب؟ فقال الله: أنا أبلِّغُهم عنكم؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية»(1).

وفي «الموطأ»(2) من حديث كعب بن مالكٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنما نَسَمةُ المؤمن طائرٌ يَعْلقُ في الجنَّة حتىٰ يُرْجِعَه اللهُ إلىٰ جسده يوم يبعثُه»**.

وفي «البخاري»(3) أنَّ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ لما توفِّي قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ له مُرْضِعًا في الجنة»**.

وفي «صحيح البخاري»(4) عن عمران بن حصين، قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«اطَّلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء، واطَّلعتُ في النَّار فرأيتُ أكثر أهلها النساء»**.

---

(1) أخرجه أبو داود (٢٥٢٠)، وأحمد (١/ ٢٦٦)، وغيرهما.
وصححه الحاكم (٢/ ٨٨) على شرط مسلم ولم يتعقبه الذهبي، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (١٠/ ٣٤٩). وحديث ابن مسعود السابق يشهد له.

(2) (١/ ٣٢٨)، ومن طريقه أحمد (٣/ ٤٥٥)، والنسائي (٢٠٧٢)، وغيرهما بإسنادٍ صحيح. وصححه ابن حبان (٤٦٥٧).
وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٨٠٨، ٧/ ٣٤١٤).

(3) (١٣٨٢).

(4) (٣٢٤١).

والآثارُ في هذا الباب أكثر من أن تُذْكَر[1].

وأمَّا القولُ بأنَّ الجنة والنار لم تخلقا بعد، فهو قولُ أهل البدع من ضُلَّال المعتزلة ومن قال بقولهم[2]، وهم الذين يقولون: إنَّ الجنة التي أُهْبِطَ منها آدمُ إنما كانت جنةً بشرقيِّ[3] الأرض. وهذه الأحاديثُ وأمثالُها تردُّ قولهم.

قالوا: وأمَّا احتجاجُكم بسائر الوجوه التي ذكرتموها في الجنة، وأنها منتفيةٌ في الجنة التي أُسكِنَها آدم، من اللغو والكذب، والنَّصَب والعُرْي، وغير ذلك؛ فهذا كلُّه حقٌّ، لا ننكره نحن ولا أحدٌ من أهل الإسلام؛ ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة، كما يدلُّ عليه سياقُ الكلام، وهذا لا ينفي أن يكون فيها بين آدم وإبليسَ ما حكاه الله عز وجل من الامتحان والابتلاء، ثم[4] يصيرُ الأمرُ عند دخول المؤمنين إليها إلىٰ ما أخبر الله عز وجل به؛ فلا تنافي بين الأمرين.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ الجنة دارُ جزاءٍ وثواب، وليست دار تكليف، وقد كلَّف الله سبحانه آدمَ فيها بالنهي عن الشجرة.

فجوابُه من وجهين:

---

(١) انظر: «حادي الأرواح» (٣٣ - ٤٥)، و«التيجان» لابن هشام (٢٠)، و«نظم المتناثر» للكتاني (٢٣٢).

(٢) انظر: «أوائل المقالات» للمفيد (١٢٤، ٢٢٠)، و«حقائق التأويل» للشريف الرضي (٢٤٥)، و«الفِصَل» (٤/ ١٤١)، و«الانتصار» للعمراني (٦٥٩).

(٣) مهملة في (د). وفي (ت، ق): «تسير في».

(٤) (ت): «حتى».

أحدهما: أنها إنما يمتنعُ أن تكون دارَ تكليفٍ إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة، فحينئذٍ ينقطعُ التكليف، وأما ٱمتناعُ وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل عليه.

الثاني: أنَّ التكليفَ فيها لم يكن بالأعمال التي يُكلَّف بها الناسُ في الدنيا، من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها، وإنما كان حَجْرًا عليه في شجرةٍ من جملة أشجارها[1]، وهذا لا يمتنعُ وقوعُه في جنة الخلد، كما أنَّ كلَّ أحدٍ محجورٌ عليه أن يَقْرَبَ أهلَ غيره فيها.

فإن أردتم بأنَّ الجنة ليست دارَ تكليفٍ ٱمتناعَ وقوع مثل هذا فيها في وقتٍ من الأوقات فلا دليل لكم عليه، وإن أردتم أنَّ غالبَ التكاليف التي تكونُ في الدنيا منتفيةٌ فيها فهو حقٌّ ولكن لا يدلُّ علىٰ مطلوبكم.

قالوا: وهذا كما أنه مُوجَبُ الأدلة، فهو قولُ[2] سلف الأمة، فلا نعرفُ[3] بقولكم قائلًا من أئمة العلم، ولا يُعَرَّجُ عليه، ولا يُلْتفَت إليه.

وقال الأولون: الجوابُ عمَّا ذكرتم من وجهين؛ مجمل ومفصَّل:

أما المجمل: فإنكم لم تأتوا علىٰ قولكم بدليلٍ يتعيَّنُ المصيرُ إليه، لا من قرآنٍ، ولا من سنَّة، ولا من أثرٍ ثابتٍ عن أحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا التابعين، لا مسندًا ولا مقطوعًا.

ونحن نُوجِدُكم من قال بقولنا:

---

(١) (ت): «من بعض جملة أشجارها».

(٢) في الأصول: «وقول». والمثبت أشبه بالسياق.

(٣) (ق، د، ح، ن): «يعرف».

هذا أحدُ أئمة الإسلام سفيانُ بن عيينة، قال في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ قال: «يعني في الأرض»[1].

وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة، قال في «معارفه»[2] ـ بعد أن ذكر خلقَ الله لآدم وزوجه ـ: «إنَّ الله سبحانه أخرجه من مشرق جنة عدنٍ إلىٰ الأرض التي منها أُخِذ».

وهذا أُبيٌّ قد حكىٰ الحسنُ عنه أنَّ آدم لما ٱحتضرَ ٱشتهىٰ قِطْفًا من قِطْف الجنة، فانطلقَ بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة، فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ قالوا: إنَّ أبانا اشتهىٰ قِطْفًا من قِطْف الجنة، فقالوا لهم: ارجعوا فقد كُفِيتُموه، فانتهوا إليه، فقبضوا روحَه، وغسَّلوه، وحنَّطوه، وكفَّنوه، وصلَّىٰ عليه جبريلُ وبنوه خلفَ الملائكة، ودفنوه، وقالوا: هذه سنَّتكم في موتاكم[3].

---

(١) ذكره في «حادي الأرواح» (٥٢)، ولم أقف عليه مسندًا.

(٢) (١٤)، إلا أن هذا ليس قول ابن قتيبة، وإنما هو مِن فصلٍ طويلٍ نقله من التوراة، صرَّح بذلك في فاتحة كلامه وخاتمته؛ فلا تصحُّ نسبته إليه. وانظر: (سفر التكوين: الإصحاح الثاني: ٨ - ٢٢).

(٣) أخرجه الطيالسي (٥٥١)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «المسند» (٥/ ١٣٦)، وابن المنذر في «الأوسط» (٥/ ٣٧٠)، وغيرهم.
وفي إسناده اختلافٌ كثير، في رفعه ووقفه، ووصله وانقطاعه.
وصححه مرفوعًا الحاكم (١/ ٣٤٤، ٢/ ٥٤٥) ولم يتعقبه الذهبي، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (١٢٥١).
وقال ابن كثير في «التفسير» (٣/ ١٤١٥): «الموقوف أصحُّ إسنادًا»، وقال في (٥/ ٢٢٩٨): «وفي رفعه نظر». =

وهذا أبو صالحٍ قد نقَل عن ٱبن عباس في قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾، قال: «هو كما يقال: هَبَط فلانٌ في أرض كذا وكذا»[١].

وهذا وهبُ بن منبه يذكرُ أنَّ آدم خُلِقَ في الأرض، وفيها سَكَن، وفيها نُصِبَ له الفردوس، وأنه كان بِعَدَن، وأن سَيْحُون وجَيْحُون والفرات ٱنقسمت من النهر الذي كان في وسط الجنة، وهو الذي كان يسقيها[٢].

وهذا منذرُ بن سعيد البلُّوطي، ٱختاره في «تفسيره»، ونصَره بما حكيناه عنه، وحكاه في غير التفسير[٣] عن أبي حنيفة رضي الله عنه ومن قال بقوله، والذين ردُّوا عليه مقالتَه لم يُنكِروا نسبتَه إلىٰ أبي حنيفة، وإنما ناقضوه بكونه خالف أبا حنيفة فيما خالفه فيه، فَلِمَ قال بقوله في هذه المسألة؟!

وهذا أبو مسلمٍ الأصبهانيُّ صاحبُ «التفسير» وغيره، أحدُ الفضلاء المشهورين، قال بهذا وانتصر له واحتجَّ عليه بما هو معروفٌ في كتابه.

وهذا أبو محمَّد عبد الحقِّ بن عطية ذكر القولين في «تفسيره»[٤] في قصَّة آدم في البقرة.

= وانظر: «التهذيب» (١/ ٢٣٢).

وانظر تخريجه موسَّعًا في «المرسل الخفي» لشيخنا الشريف العوني (٢/ ٦٠٣ - ٦٢٩)، وخلص إلى صحَّته مرفوعًا.

(١) «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (٤٦).

(٢) لم أقف عليه. ونقلُ وهبٍ عن كتب بني إسرائيل معلوم. وانظر ما تقدم قبل قليل في التعليق على كلام ابن قتيبة.

(٣) ذكر ابنُ كثير في «البداية» (١/ ١٧٦) أن له مصنفًا مفردًا في هذه المسألة.

(٤) (١/ ٢٤٩ - ٢٥٠).

وهذا أبو محمَّد ابن حزم ذكر القولين في كتاب «الملل والنِّحل» له[1]، فقال: «وكان المنذر بن سعيد القاضي يذهبُ إلىٰ أنَّ الجنةَ والنار مخلوقتان[2]، إلا أنه كان يقول: إنها ليست هي التي كان فيها آدمُ وامرأتُه».

وممن حكىٰ القولين أيضًا: أبو عيسىٰ الرُّمَّاني[3] في «تفسيره»، واختار أنها جنة الخلد.

ثمَّ قال: «والمذهبُ الذي آخترناه: قولُ الحسن، وعمرو، وواصل[4]، وأكثر أصحابنا، وهو قولُ أبي عليٍّ، وشيخنا أبي بكر، وعليه أهلُ التفسير».

---

(١) (٤/ ١٤٢ - ١٤٣). وقد أورد حجج المنذر بن سعيد وناقشها، وختم البحث بقوله: «فصحَّ أنها لم تكن في الأرض البتة».

(٢) كذا نقل عنه ابن حزم. وحكىٰ عنه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٢٥) أنه يقول بأن الجنة لم تخلق بعد، وكذلك النار. وابنُ حزمٍ أبصرُ به وأعرف، وفي نقله عنه دلائلُ الضبط، وأخشىٰ أن يكون ابن عطية بنىٰ إحدى المسألتين على الأخرى، وليس بينهما تلازم، كما سيبينه المصنف فيما يأتي (ص: ٦٨).

(٣) كذا وقعت كنيته في الأصول، و«حادي الأرواح» (١٩)، وعنهما في «البداية والنهاية» (١/ ١٧٦).

وهو أبو الحسن الرماني علي بن عيسى (ت: ٣٨٤) النحوي المعتزلي. ترجمته في «إنباه الرواة» (٢/ ٢٩٤)، و«السير» (١٦/ ٥٣٣).

وقد عُثِر على أجزاء من تفسيره، ولم تطبع بعد. وشيخه أبو بكر هو ابن الإخشيد، وأبو علي هو الجبائي، وهو كثير النقل عنهما.

(٤) في الأصول: «وعمرو بن واصل»، تحريف. عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وانظر: «التبيان» للطوسي (١/ ١٥٦).

وممن ذكر القولين: أبو القاسم الراغب[1] في «تفسيره»[2]، فقال: «واختلف في الجنة التي أُسْكِنَها آدم، فقال بعض المتكلِّمين: كان بستانًا جعله الله تعالىٰ له امتحانًا، ولم يكن جنة المأوىٰ».

ثمَّ قال: «ومن قال: لم تكن جنة الخلد[3]؛ لأنه لا تكليفَ في الجنة، وآدمُ كان مكلَّفًا».

قال: «وقد قيل في جوابه: إنما[4] لا تكونُ دارَ تكليف[5] في الآخرة، ولا يمتنعُ أن تكون في وقتٍ دارَ تكليفٍ دون وقت، كما أنَّ الإنسانَ يكونُ في وقتٍ مكلَّفًا دون وقت».

وممن ذكر الخلافَ في المسألة: أبو عبد الله ابن الخطيب الرازي في «تفسيره»[6]، فذكر هذين القولين، وقولًا ثالثًا ـ وهو التوقُّف ـ، قال: «لإمكان الجميع وعدم الوصول إلىٰ القطع»، كما سيأتي حكايةُ كلامه.

ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول، وهو أنها لم تكن جنة الخلد، إنما كانت حيثُ شاء الله من الأرض.

قالوا: وكانت تطلعُ فيها الشمسُ والقمر، وكان إبليسُ فيها ثمَّ أُخرِج.

---

(١) الأصبهاني، المتكلِّم (ت: ٤٢٥ تقريبًا). انظر: «السير» (١٨/ ١٢٠).

(٢) (ق ٤٠/أ).

(٣) (ت، ق): «المأوى».

(٤) (ق، ح): «إنها».

(٥) (ن، د، ق، ح): «التكليف».

(٦) (٣/٣ - ٤).

قال[1]: ولو كانت جنَّة الخلد لما أُخرِجَ منها.

وممن ذكر القولين ـ أيضًا ـ: أبو الحسن الماوردي، فقال في «تفسيره»[2]:

«واختُلِفَ في الجنة التي أُسْكِناها[3] علىٰ قولين:

أحدهما: أنها جنة الخلد.

الثاني: أنها جنةٌ أعدَّها اللهُ لهما، وجعلها دارَ ٱبتلاء، وليست جنةَ الخلد التي جعلها اللهُ دارَ جزاء.

ومن قال بهذا ٱختلفوا فيه علىٰ قولين:

أحدُهما: أنها في السماء؛ لأنه أهبطهما منها. وهذا قولُ الحسن.

الثاني: أنها في الأرض؛ لأنه ٱمتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نُـهِيا عنها دون غيرها من الثمار. وهذا قولُ ٱبن بحر[4].

---

(١) كذا في الأصول.

(٢) (١/ ١٠٤، ٢/ ٢٠٨، ٢٠٩). وسقط من مطبوعته ذكر الخلاف الثاني.

والماورديُّ يحكي في كتابه كثيرًا أقوال المعتزلة دون تعقُّب، ويوافقهم في بعضها، ومن هنا اتهمه ابن الصلاح بالاعتزال، وحذَّر من تفسيره، وتبعه الذهبي، ودافع عنه ابن حجر بأن المسائل التي وافق اجتهادُه فيها مقالاتِ المعتزلة معروفةٌ معدودة، ولا ينبغي أن يطلق عليه بها اسم الاعتزال.

انظر: «طبقات الشافعية» لابن الصلاح (٢/ ٦٣٨)، و«الميزان» (٣/ ١٥٥)، و«لسان الميزان» (٤/ ٢٦٠)، و«إرشاد الأريب» (١٩٥٥).

(٣) (ت، ح): «أسكنها».

(٤) في الأصول، ومعظم نسخ «البداية والنهاية» (١/ ١٧٧): «ابن يحيى». وفي نسخة من «البداية والنهاية»: «ابن جبير». وكله تحريف. ووقع على الصواب في «حادي =

وكان ذلك بعد أن أُمِرَ إبليسُ بالسُّجود لآدم. والله أعلمُ بصواب ذلك».

هذا كلامه.

وقال ٱبنُ الخطيب في «تفسيره»[1]: «ٱختلفوا في أنَّ الجنةَ المذكورة في هذه الآية: هل كانت في الأرض أو في السماء؟ وبتقدير أنها كانت في السماء، فهل هي الجنةُ التي هي دارُ الثواب وجنةُ الخلد أو جنةٌ أخرىٰ؟

فقال أبو القاسم البلخي[2] وأبو مسلم الأصبهاني: هذه الجنةُ في الأرض. وحملا الإهباطَ علىٰ الانتقال من بقعةٍ إلىٰ بقعة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾.

القول الثاني ـ وهو قولُ الجُبَّائي ـ: أنَّ تلك الأرض كانت في السماء السابعة».

قال: «والدليلُ عليه قولُه: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾. ثمَّ إنَّ الإهباطَ الأول كان من السماء السابعة إلىٰ السماء الأولىٰ، والإهباطُ الثاني كان من السماء إلىٰ الأرض».

قال: «**والقولُ الثالث** ـ وهو قول جمهور أصحابنا ـ: أنَّ هذه الجنةَ هي

= الأرواح» (٤٨).

وهو أبو مسلم الأصبهاني، محمد بن بحر (تقدمت ترجمته)، مشهورٌ بهذه النسبة، ويذكره بها كثيرًا الماورديُّ في تفسيره (انظر: ٢/ ٢٠٤، ٤٥٠، ٤/ ٨٣، ٢١٣، وغيرها)، وابنُ الجوزي في «زاد المسير»، والقرطبي، وغيرهم.

(١) (٣/ ٣).

(٢) عبد الله بن أحمد بن محمود (ت: ٣١٩)، من متكلِّمي المعتزلة البغداديين، وله تصانيف. انظر: «طبقات المعتزلة» (٨٨)، و«السير» (١٤/ ٣١٣).

دارُ الثواب. والدليلُ عليه: أنَّ الألف واللَّام في لفظ «الجنة» لا يفيدُ العموم؛ لأنَّ سُكنىٰ آدمَ جميعَ الجِنان[1] مُحال، فلا بدَّ من صرفها إلىٰ المعهود السابق، والجنةُ التي هي المعهودةُ المعلومة بين المسلمين هي دارُ الثواب؛ فوَجَب صرفُ اللَّفظ إليها».

قال: «**والقولُ الرابع**: أنَّ الكلَّ ممكن، والأدلةُ النقليةُ ضعيفةٌ ومتعارضة؛ فوجبَ التوقُّفُ وتركُ القطع».

قالوا: ونحن لا نقلِّدُ هؤلاء، ولا نعتمدُ علىٰ ما حُكِيَ عنهم، والحجةُ الصحيحةُ حَكَمٌ بين المتنازعين.

قالوا: وقد ذكرنا من الأدلَّة علىٰ هذا القول ما فيه كفاية.

أمَّا **الجوابُ المفصَّل**: فنحن نتكلَّم علىٰ ما ذكرتم من الحُجَج؛ لينكشفَ وجه الصَّواب، فنقولُ وبالله التوفيق:

أما ٱستدلالُكم بحديث أبي هريرة وحذيفة حين يقولُ الناس لآدم: «**ٱستفتِح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم منها إلا خطيئةُ أبيكم؟**»[2]؛ فهذا الحديثُ لا يدلُّ علىٰ أنَّ الجنةَ التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم هي التي أُخرِجَ منها بعينها؛ فإنَّ الجنة ٱسمُ جنس، فكلُّ بستانٍ[3] يُسمَّىٰ جنة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ

(١) (د، ح، ن): «سكنى جميع الجنان».

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥).

(٣) (ت، ن، ح): «لكل بستان».

جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٢ - ٣٩].

فالجنةُ ٱسمُ جنس؛ فهُم لـمَّا طلبوا من آدم أن يستفتحَ لهم جنةَ الـخُلد أخبرهم بأنه لا يَحْسُنُ منه أن يُقْدِم علىٰ ذلك وقد أخرجَ نفسَه وذريتَه من الجنة التي أسكنه اللهُ إياها بذنبه وخطيئته.

هذا الذي دلَّ عليه الحديث.

وأمَّا كونُ الجنة التي أُخرِجَ منها هي بعينها التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم؛ فلا يدلُّ الحديثُ عليه بشيءٍ من وجوه الدَّلالات الثلاث[1]، ولو دلَّ عليه لوجبَ المصيرُ إلىٰ مدلول الحديث، وامتنع القولُ بمخالفته، وهل مدارُنا إلا علىٰ فهم مقتضىٰ كلام الصَّادق المصدوق صلواتُ الله وسلامه عليه؟!

قالوا: وأمَّا استدلالكم بالهبوط، وأنه نزولٌ من عُلْوٍ إلىٰ سُفْل، فجوابه من وجهين:

أحدهما: أنَّ الهبوط قد ٱستُعمِل في النُّقْلة من أرضٍ إلىٰ أرض، كما يقال: «هبَط فلانٌ بلدَ كذا وكذا»، وقال تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا

---

(١) المطابقة، والتضمُّن، والالتزام. و«الثلاث» ليست في (ت).

سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، وهذا كثيرٌ في نظم العرب ونثرها، قال:

أنْ تَهبِطِينَ بلادَ قَوْ ... مٍ يَرْتَعُونَ من الطِّلاح[١]

وقد روىٰ أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «هو كما يقال: هبَط فلانٌ أرضَ كذا وكذا»[٢].

الثاني: أنَّا لا ننازعكم في أنَّ الهبوط حقيقةً ما ذكرتموه، ولكن من أين يلزمُ أن تكون الجنةُ التي منها الهبوطُ فوق السماوات؟! فإذا كانت في أعلىٰ الأرض أما يصحُّ أن يقال: هبَط منها، كما يهبطُ الحجرُ من أعلىٰ الجبل إلىٰ أسفله، ونحوه؟!

وأما قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦، والأعراف: ٢٤] فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الأرض التي أُهبِطوا إليها لهم فيها مستقرٌّ ومتاعٌ إلىٰ حين، ولا يدلُّ علىٰ أنهم لم يكونوا في جنةٍ عاليةٍ أعلىٰ من الأرض التي أُهبِطوا إليها تخالفُ تلك الأرض في صفاتها وأشجارها ونعيمها وطِيبها؛ فإنَّ الله سبحانه فاوَتَ بين بقاع الأرض أعظمَ تفاوتٍ وأبينَه، وهذا مشهودٌ بالحسِّ.

فمِن أين لكم أنَّ تلك لم تكن جنةً تميَّزت عن سائر بقاع الأرض بما لا يكونُ إلا فيها، ثم أُهبِطُوا منها إلىٰ الأرض التي هي محلُّ التعب والنَّصَب

---

(١) أنشده القاسم بن معن قاضي الكوفة، في «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٣٦)، و«خزانة الأدب» (٨/ ٤٢١). ودون نسبة في «الخصائص» (١/ ٣٨٩)، و«شرح المفصَّل» (٧/ ٩)، وغيرهما.

(٢) تقدم قريبًا.

والابتلاء والامتحان؟!

وهذا بعينه هو الجوابُ عن ٱستدلالكم بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ إلىٰ آخر ما ذكرتموه[1]. مع[2] أنَّ هذا حكمٌ معلَّقٌ بشرط، والشرطُ لم يحصل؛ فإنه سبحانه إنما قال ذلك عقيب قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾؛ فقولُه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ هو صيغةُ وعدٍ مرتبطةٌ بما قبلها، والمعنىٰ: إن ٱجتنبتَ الشجرةَ التي نهيتُك عنها، ولم تقرَبها، كان لك هذا الوعد. والحكمُ المعلَّقُ بالشرط عدمٌ عند عدم الشرط؛ فلما أكل من الشجرة زال ٱستحقاقُه لهذا الوعد.

قالوا: وأما قولكم: إنه لو كانت الجنةُ في الدنيا لعلمَ آدمُ كذبَ إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] إلىٰ آخره؛ فدعوىٰ لا دليل عليها؛ لأنه لا دليل لكم علىٰ أنَّ الله سبحانه كان قد أعلَم آدمَ حين خلقه أنَّ الدنيا منقضيةٌ فانية، وأنَّ مُلْكَها يبلىٰ ويزول.

وعلىٰ تقدير أن يكون آدمُ حينئذٍ قد أُعلِمَ ذلك، فقولُ إبليس: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يدلُّ علىٰ أنه أرادَ بالـخُلد ما لا يتناهىٰ، فإنَّ الـخُلدَ في لغة العرب هو اللُّبثُ الطويل، كقولهم: قَيْدٌ مُـخَلَّد، وحبسٌ مُـخَلَّد، وقد قال تعالىٰ لعادٍ[3]: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

(١) (ص: ٣٨).

(٢) (د، ق): «من». تحريف.

(٣) (ت، د): «لثمود»، وهو خطأ. وفي (ق): «لثمود»، وصُـحِّحت في الطُّرة. وفي (ن): «لثمود»، وصُحِّحت في الطُّرة إلى: «لقوم ثمود»!

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨- ١٢٩]؛ وكذلك قولُه: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ يرادُ به الـمُلكُ الطويلُ الثابت.

وأيضًا؛ فلا وجه للاعتذار[١] عن قول إبليس مع تحقُّق كذبه، ومُقاسَمته آدمَ وحوَّاء علىٰ الكذب، والله سبحانه قد أخبَرَ أنه قاسَمَهما ودَلَّاهما بغرور، وهذا يدلُّ علىٰ أنهما ٱغترَّا بقوله، فغرَّهما بأن أطمَعهما في خُلد الأبد والـمُلك الذي لا يبلىٰ.

وبالجملة؛ فالاستدلالُ بهذا علىٰ كون الجنة التي أُسكِنَها آدمُ هي جنةَ الـخُلد التي وُعِدَها المتقون غيرُ بيِّن.

ثمَّ نقول: لو كانت الجنةُ هي جنةَ الـخُلد التي لا يزولُ مُلكُها لكانت جميعُ أشجارها شجرَ الـخُلد؛ فلم يكن لتلك الشجرة ٱختصاصٌ[٢] من بين سائر الشجر بكونها شجرة الـخُلد، وكان آدمُ يَسْخَرُ من إبليس؛ إذ قد عَلِمَ أنَّ الجنةَ دارُ الـخُلد.

فإن قلتم: لعلَّ آدم لم يعلم حينئذٍ ذلك، فغرَّه الخبيثُ وخدَعه بأنَّ هذه الشجرة وحدها هي شجرةُ الـخُلد= قلنا: فاقنعوا منَّا بهذا الجواب بعينه عن قولكم: «لو كانت الجنةُ في الدنيا لعلمَ آدمُ كذبَ إبليس في ذلك»؛ فإنَّ قولَه كان خداعًا وغرورًا محضًا علىٰ كلِّ تقدير. فانقلبَ دليلُكم حجةً عليكم، وبالله التوفيق.

قالوا: وأما قولكم: «إنَّ قصةَ آدمَ في البقرة ظاهرةٌ جدًّا في أنَّ جنة آدمَ

---

(١) (ح، ن): «للاعتبار».

(٢) (ح): «واختصاصها».

كانت فوق السماء»؛ فنحن نطالبكم بهذا الظُّهور، ولا سبيل لكم إلىٰ إثباته.

قولُكم[1]: «إنه كرَّر فيه ذكر الهبوط مرتين، ولا بدَّ أن يفيدَ الثاني غيرَ ما أفاد الأول، فيكونُ الهبوطُ الأول من الجنة، والثاني من السماء»= فهذا فيه خلافٌ بين أهل التفسير:

فقالت طائفةٌ هذا القول الذي ذكرتموه.

وقالت طائفةٌ ـ منهم النقَّاشُ[2] وغيره ـ: إنَّ الهبوط الثاني إنما هو من الجنة إلىٰ السماء، والهبوطُ الأولُ إلىٰ الأرض، وهو آخرُ الهبوطَيْن في الوقوع وإن كان أوَّلهما في الذِّكر.

وقالت طائفة: أتىٰ به علىٰ جهة التغليظ والتأكيد، كما تقول للرجل: ٱخرُج، ٱخرُج.

وهذه الأقوالُ ضعيفة.

فأمَّا القولُ الأول، فيظهرُ ضعفُه من وجوه:

أحدها: أنه مجردُ دعوىٰ لا دليل عليها من اللفظ ولا من خبرٍ يجبُ المصيرُ إليه، وما كان هذا سبيلُه لا يُحْمَلُ القرآنُ عليه.

الثاني: أنَّ الله سبحانه قد أهبط إبليسَ لما ٱمتنع من السجود لآدم إهباطًا كونيًّا قدريًّا لا سبيل إلىٰ التخلُّف عنه، فقال تعالىٰ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن

---

(١) أي: وأما قولكم. وفي (ت): «بقولكم».

(٢) محمد بن الحسن الموصلي، أبو بكر (ت: ٣٥١)، له: «شفاء الصدور» تفسيرٌ مشهور، والنقل عنه مستفيض، ولم يطبع بعد، والمصنف ينقل هنا عن «المحرر الوجيز» (١/ ١٦٢).

﴿تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، وقال في موضعٍ آخر: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحِجر: ٣٤ - ٣٥]، وفي موضعٍ آخر: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

وسواءٌ كان الضميرُ في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ راجعًا إلىٰ السماء، أو إلىٰ الجنة، فهذا صريحٌ في إهباطه وطرده ولعنته وإدحاره. والـمَدْحُور: الـمَبْعُود(١).

وعلىٰ هذا، فلو كانت الجنةُ فوق السماوات لكان قد صَعِدَ إليها بعد إهباط الله له. وهذا وإن كان ممكنًا فهو في غاية البعد عن حكمة الله(٢)، ولا يقتضيه خبرُه(٣)؛ فلا ينبغي أن يصار إليه.

وأما الوجوه الأربعةُ التي ذكرتموها مِن صعوده للوسوسة؛ فهي ـ مع أمر الله تعالىٰ له بالهبوط مطلقًا وطرده ولعنته ودُحوره ـ لا دليل عليها، لا من اللفظ، ولا من الخبر الذي يجبُ المصيرُ إليه، وما هي إلا احتمالاتٌ مجرَّدة، وتقديراتٌ لا دليل عليها.

الثالث: أنَّ سياقَ قصة إهباط الله تعالىٰ لإبليس ظاهرةٌ(٤) في أنه إهباطٌ إلىٰ الأرض، مِن وجوه:

أحدُها: أنه سبحانه نبَّه علىٰ حكمة إهباطه بما قام به من التكبُّر المقتضي

---

(١) كذا في الأصول. وانظر: «طريق الهجرتين» (٣٩٣) والتعليق عليه.

(٢) (ن، ح): «عن حكمه».

(٣) (ت): «خبر غيره».

(٤) كذا في الأصول. والوجه: «ظاهرٌ»؛ لأن الكلام عن السياق.

غايةَ ذُلِّه وطرده ومعاملته بنقيض قصده، وهو إهباطُه من فوق السماوات إلىٰ قرار الأرض، ولا تقتضي الحكمةُ أن يكون فوق السماء مع كِبْرِه[1] ومنافاة حاله لحال الملائكة الأكرمين.

الثاني: أنه قال: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وكونُه رجيمًا ملعونًا ينفي أن يكون في السماء بين[2] المقرَّبين المطهَّرين.

الثالث: أنه قال: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾، وملكوتُ السماوات لا يَعْلُوه الـمَذؤومُ المدحورُ أبدًا.

وأما القولُ الثاني؛ فهو القولُ الأولُ بعينه، مع زيادة ما لا يدلُّ عليه السِّياق بحال، من تقديم ما هو مؤخَّرٌ في الواقع، وتأخير ما هو مقدَّمٌ فيه؛ فيُرَدُّ بما رُدَّ به القولُ الذي قبله.

وأما القولُ الثالث، وهو أنه للتأكيد؛ فإن أُريدَ التأكيدُ اللفظيُّ المجرَّدُ فهذا لا يقعُ في القرآن، وإن أُريدَ به أنه مستلزمٌ للتغليظ والتأكيد مع ما يشتملُ عليه من الفائدة فصحيح.

فالصوابُ أن يقال: أُعيدَ الإهباطُ مرةً ثانيةً لأنه علَّق عليه حكمًا غير المعلَّق علىٰ الإهباط الأول؛ فإنه علَّق علىٰ الأول عداوةَ بعضهم بعضًا، فقال: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، وهذه جملةٌ حاليَّة، وهي ٱسميَّةٌ بالضمير وحده عند الأكثرين، والمعنىٰ: «ٱهبطوا مُتعَادِين»، وعلَّق علىٰ الهبوط الثاني حكمين آخرين:

---

(١) (ت): «التكبر».

(٢) (ت): «مع».

أحدهما: هبوطُهم جميعًا[1].

والثاني: قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فكأنه قيل: اهبطوا بهذا الشرط، مأخوذًا عليكم هذا العهد، وهو أنه مهما جاءكم مني هدًى فمن اتبعه منكم فلا خوفٌ عليه ولا حزنٌ يلحقُه.

ففي الإهباط الأول إيذانٌ بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة، وفي الإهباط الثاني روحُ التسلية والاستبشار بحُسْن عاقبة هذا الهبوط لمن تَبِعَ هداي، ومصيره إلى الأمن والسُّرور المُضادِّ للخوف والحزن.

فكَسَرَهُم بالإهباط الأول، وجَبَرَ من اتبعَ هداه بالإهباط الثاني، على عادته سبحانه ولطفه بعباده وأهل طاعته، كما كَسَرَ آدمَ بالإخراج من الجنة، وجَبَرَه بالكلمات التي تلقَّاها منه، فتابَ عليه وهداه.

ومن تدبَّر حكمته سبحانه، ولطفَه وبرَّه بعباده وأحبابه[2]، في كَسْرِه لهم ثم جَبْرِه بعد الانكسار، كما يَكْسِرُ العبدَ بالذَّنب ويُذِلُّه به ثم يَجْبُره بتوبته عليه ومغفرته له، وكما يَكْسِرُه بأنواع المصائب والمحن ثمَّ يَجْبُره بالعافية والنعمة= انفتحَ له بابٌ عظيمٌ من أبواب معرفته و محبته[3]، وعَلِمَ أنه أرحمُ

---

(1) (ح): «هبوطهما جميعا».

(2) (ق): «وأحبابه وأهل طاعته».

(3) انظر هذا المعنى الجليل في «زاد المعاد» (٣/ ٢٢١، ٤٧٧)، و«الوابل الصيب» (٩، ١٠)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٨٧، ٢٩٩)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٨٩)، و«حادي الأرواح» (٧٦٥)، وسيأتي مبسوطًا (ص: ٨٨، ٨١٩، ٨٢٢).

بعباده من الوالدة بولدها، وأن ذلك الكسرَ هو نفسُ رحمته به وبرِّه ولطفه، وهو أعلمُ بمصلحة عبده منه، ولكنَّ العبدَ لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربه وصفاته لا يكادُ يشعرُ بذلك، ولا يُنالُ رضا المحبوب وقربُه والابتهاجُ والفرحُ بالدُّنوِّ منه والزلفىٰ لديه إلا علىٰ جسرٍ من الذُّل والمسكنة، وعلىٰ هذا قام أمرُ المحبة، فلا سبيل إلىٰ الوصول إلىٰ المحبوب إلا بذلك، كما قيل[1]:

تَذلَّلْ لمن تَهْوىٰ لِتَحْظىٰ بِقُرْبِه ... فكم عِزَّةٍ قد نالها العبدُ بالذُّلِّ

إذا كان من تهوىٰ عزيزًا ولم تكن ... ذليلًا له فاقْرَ السَّلامَ علىٰ الوَصْلِ

وقال آخر:

ٱخْضَعْ وذِلَّ لمن تحبُّ فليس في ... شرعِ الهوىٰ أنفٌ يُشَالُ ويُعْقَدُ[2]

وقال آخر:

وما فَرِحَتْ بالوصل نفسٌ عزيزةٌ ... وما العِزُّ إلا ذُلُّها وانكسارُها[3]

قالوا: وإذا عُلم أنَّ إبليس أُهبِط من دار العزِّ عقبَ امتناعه وإبائه من

---

(١) البيتان للحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، من شيوخ البخاري، وله ديوان شعر (ت: ٢٦٠) في «معجم أصحاب الصدفي» (٨٤). والأول لعليَّة بنت المهدي في أشعار أولاد الخلفاء من «الأوراق» للصولي (٧٥)، ودون نسبة في «المذاكرة في ألقاب الشعراء» (١٦٨)، و«الواضح المبين» (١٠٥).

(٢) قاله أبو تراب هبة الله بن السريجي، على البديهة، في «بدائع البدائه» (٩).

(٣) يشبه نظم المصنف، ولم يذكره في الفصل الذي عقده لهذا المعنى في «روضة المحبين» (٣٢٨). وانظر: «طريق الهجرتين» (١٠٩).

السجود لآدم، ثبتَ أنَّ وسوستَه له ولزوجه كانت في غير المحلِّ الذي أُهبِط منه، والله أعلم.

قالوا: وأما قولُكم: «إن الجنة إنما جاءت معرَّفةً باللام، وهي تنصرفُ إلىٰ الجنة التي لا يعهدُ بنو آدم سواها»؛ فلا ريب أنها جاءت كذلك، ولكنَّ العهدَ وقع في خطاب الله تعالىٰ آدمَ لسكناها بقوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، فهي كانت معهودةً عند آدم، ثم أخبَرنا سبحانه عنها معرَّفًا لها بلام التعريف، فانصرف المعرّفُ بها[1] إلىٰ تلك الجنة المعهودة في الذِّهن، وهي التي سكنها آدمُ ثمَّ أُخرِج[2]، فمن أين في هذا ما يدلُّ علىٰ محلِّها وموضعها بنفيٍ أو إثبات؟!

وأما مجيءُ جنة الخُلد معرَّفةً باللام؛ فلأنها الجنةُ التي أخبَرت بها الرسلُ لأممهم، ووَعَدَها الرحمنُ عبادَه بالغيب، فحيث ذُكِرت انصرف الذِّهنُ إليها دون غيرها؛ لأنها قد صارت معلومةً في القلوب مستقرةً فيها، ولا ينصرفُ الذِّهنُ إلىٰ غيرها، ولا يتوجَّه الخطابُ إلىٰ سواها.

وقد جاءت الجنةُ في القرآن معرَّفةً باللام، والمرادُ بها بستانٌ في بقعة من الأرض؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، فهذا لا ينصرفُ الذِّهنُ فيها لا إلىٰ جنة الخُلد ولا إلىٰ جنة آدم بحال.

قالوا: وأما قولُكم: إنه قد اتفق أهلُ السنة والجماعة علىٰ أنَّ الجنةَ

---

(١) (ح): «المعروف بها». (ق): «المعرف لها».

(٢) (ن): «أخرج منها».

والنار مخلوقتان، وأنه لم ينازع في ذلك إلا بعضُ أهل البدع والضلال، واستدلالُكم علىٰ وجود الجنة الآن= فحقٌّ لا ننازعُكم فيه، وعندنا من الأدلّة علىٰ وجودها أضعافُ ما ذكرتم، ولكن أيُّ تلازمٍ بين أن تكون جنةُ الخُلد مخلوقةً وبين أن تكون هي جنة آدم بعينها؟!

فكأنكم تزعمون أنَّ كلَّ من قال: إنَّ جنةَ آدم هي جنةٌ في الأرض، فلا بدَّ له أن يقول: إنَّ الجنةَ والنار لم يُخْلَقا بعد. وهذا غلطٌ منكم، منشؤه من توهُّمكم أنَّ كلَّ من قال بأنَّ الجنة لم تُخْلَق بعد فإنه يقول: إنَّ جنةَ آدم هي في الأرض، وكذلك بالعكس، أنَّ كلَّ من قال: إنَّ جنة آدم في الأرض فيقول: إنَّ الجنة لم تُخْلَق بعد[1].

فأما الأولُ فلا ريب فيه، وأما الثاني فوهمٌ، لا تلازم بينهما، لا في المذهب ولا في الدليل بحال؛ فأنتم نَصَبتم دليلَكم مع طائفةٍ نحن وأنتم متفقون علىٰ إنكار قولهم وردِّه وإبطاله، ولكن لا يلزمُ من هذا بطلانُ هذا القول الثالث. وهذا واضح.

قالوا: وأمَّا قولُكم: إنَّ جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنة من اللَّغو والكذب وسائر الآفات التي وُجِدَ بعضُها من إبليس عدوِّ الله، فهذا إنما يكونُ بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون، كما يدلُّ عليه السِّياق.

فجوابه من وجهين:

أحدهما: أنَّ ظاهر الخبر يقتضي نفيه مطلقًا؛ لقوله تعالىٰ[2]: ﴿لَّا لَغْوٌ

---

(١) «بعد» ليست في (ح، ن).

(٢) (ق): «كقوله تعالى». في الموضعين.

فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣]، ولقوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، فهذا نفيٌ عامٌّ لا يجوزُ تخصيصُه إلا بمخصِّصٍ بيِّن، والله سبحانه قد حكم بأنها دارُ الخُلد حكمًا مطلقًا، فلا يدخلُها إلا خالدٌ فيها، فتخصيصُكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلافُ الظَّاهر.

الثاني: أنَّ ما ذكرتُم إنما يصارُ إليه إذا قام الدليلُ السالمُ عن المُعارِض المقاوِم أنها جنةُ الخُلد بعينها، وحينئذٍ يتعيَّن المصيرُ إلىٰ ما ذكرتم. فأما إذا لم يَقُم دليلٌ سالمٌ علىٰ ذلك، ولم تُجْمِع الأمَّةُ عليه، فلا يسوغُ مخالفةُ ما دلَّت عليه النصوص البيِّنة[1] بغير مُوجِب، والله أعلم.

قالوا: ومما يدلُّ علىٰ أنها ليست جنةَ الخُلد التي وُعِدَها المتَّقون أنَّ الله سبحانه لما خلق آدم أعلَمه أنَّ لِعُمْرِه أجلًا ينتهي إليه، وأنه لم يخلقه للبقاء.

ويدلُّ علىٰ هذا ما رواه الترمذيُّ في «جامعه»[2] قال: حدثنا محمد بن بشَّار، قال: حدثنا صفوان بن عيسىٰ: حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذُباب، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) (ت): «المبينة».

(٢) (٣٣٦٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢١٨)، وغيرهما.
وصححه ابن حبان (٦١٦٧)، وأخرجه شيخه ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ١٦٠) ولم يُعِلَّه، وصححه الحاكم (١/ ٦٤) ولم يتعقبه الذهبي. وانظر: «علل الدارقطني» (٨/ ١٤٧).
والأشبه أنه خطأ، والصواب: عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام موقوفًا. وإلى ذلك ذهب النسائي وأحمد في «العلل» (٣/ ٣٧٢) رواية عبد الله.
إلا أن موضع الشاهد مرويٌّ من وجوه أخرى، كما سيأتي.

قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلقَ اللهُ آدمَ ونفخَ فيه الروحَ عَطَس، فقال: الحمد لله، [فحمد الله][1] بإذنه، فقال له ربُّه: يرحمُك الله يا آدم، ٱذهب إلىٰ أولئك الملائكة، إلىٰ ملإٍ منهم جلوس، فقل: السلام عليكم. فقالوا: وعليك السلام. ثم رجع إلىٰ ربِّه، فقال: إنَّ هذه تحيَّتك وتحيَّةُ بنيك بينهم.

فقال الله له ـ ويداه مقبوضتان ـ: ٱختر أيتهما شئت. فقال: ٱخترتُ يمين ربِّي ـ وكلتا يدي ربي يمينٌ مباركة ـ، ثم بسَطها، فإذا فيها آدمُ وذريته، قال: أي ربِّ، ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فإذا كلُّ إنسانٍ مكتوبٌ عمره بين عينيه، فإذا رجلٌ أضوؤهم ـ أو: مِن أضوئهم ـ، قال: يا ربِّ، من هذا؟ قال: هذا ٱبنك داود، وقد كتبتُ له عمر أربعين سنة. قال: يا ربِّ، زِدْ في عمره. قال: ذاك الذي كتبتُ له. قال: أي ربِّ، فإني قد جعلتُ له من عمري ستِّين سنة. قال: أنت وذاك.

قال: ثم أُسْكِنَ الجنةَ ما شاء الله، ثمَّ أُهبِط منها، وكان آدمُ يَعُدُّ لنفسه، فأتاه ملكُ الموت، فقال له آدم: قد عجلتَ، أليس قد كُتِبَت لي ألفُ سنة؟! قال: بلىٰ، ولكنك جعلتَ لابنك داود ستِّين سنة. فجَحَدَ فجحدَت ذريتُه، ونسي فنسيَت ذريتُه.

قال: فمِن يومئذٍ أُمِرَ بالكتاب والشهود».

هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه، ورُوِي من غير وجهٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ[2].

---

(١) ساقطة من الأصول. واستدركتها من «جامع الترمذي». وهي لازمة.

(٢) من أحسنها ما أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٧) وغيرهما من حديث هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن =

قالوا: فهذا صريحٌ في أنَّ آدم لم يكن مخلوقًا في دار الخُلد التي لا يموتُ من دخلها، وإنما خُلِقَ في دار الفناء التي جعل اللهُ لها ولأهلها أجلًا معلومًا، وفيها أُسْكِن.

فإن قيل: فإذا كان آدمُ قد عَلِمَ أنَّ له عمرًا ينتهي إليه، وأنه ليس من الخالدين، فكيف لم يكذِّب إبليسَ ويعلَم بطلانَ قوله حيثُ قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾، بل جوَّز ذلك وأكلَ من الشجرة طمعًا في الخُلد؟!

فالجوابُ[1] ما تقدَّم من الوجهين: إمَّا أن يكون المرادُ بالخُلد المُكثَ الطَّويل، لا أبدَ الأبد[2]، أو يكون عدوُّه إبليسُ لما قاسَمه وزوجَه وغرَّهما وأطمَعهما بدوامهما في الجنة نسي ما قُدِّرَ له من عمره.

قالوا: والمعوَّلُ عليه في ذلك قولُه تعالىٰ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهذا الخليفةُ هو آدمُ باتفاق الناس، ولما عَجِبَت الملائكةُ من ذلك وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ عرَّفهم سبحانه أنَّ هذا الخليفةَ الذي هو جاعلُه في الأرض ليس حالُه كما توهَّمتم من الفساد، بل أعلِّمه من علمي ما لا تعلمونه، فأَظْهَرَ فضلَه وشرفَه بأنْ علَّمه الأسماء كلَّها، ثمَّ عرضهم علىٰ

= أبي هريرة رضي الله عنه.
وصححه الترمذي، والحاكم (٢/ ٣٢٥) ولم يتعقبه الذهبي.

(١) (ت): «فالمختار».

(٢) (ح): «الآباد».

الملائكة، فلم يعرفوها وقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وهذا يدلُّ علىٰ أن هذا الخليفة الذي سبق به إخبارُ الربِّ تعالىٰ لملائكته، وأظهرَ تعالىٰ فضلَه وشرفَه وعِلْمه بما لم تعلمه الملائكة، هو خليفةٌ مجعولٌ في الأرض لا فوق السماء.

فإن قيل: قولُه تعالىٰ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إنما هو بمعنىٰ: سأجعلُه في الأرض، فهي مآلُه ومصيره. وهذا لا ينافي أن يكون في جنة الـخُلد فوق السَّماء أوَّلًا، ثم يصير إلىٰ الأرض للخلافة التي جعلها الله له. واسمُ الفاعل هنا بمعنىٰ الاستقبال، ولهذا ٱنتصبَ عنه المفعول.

فالجواب: أنَّ الله سبحانه أعلمَ ملائكتَه بأنه يخلقُه لخلافة الأرض، لا لسكنىٰ جنة الخلود، وخبرُه الصِّدق، وقولُه الحقُّ، وقد علمَت الملائكةُ أنه هو آدم، فلو كان قد أسكنه دارَ الخلود فوق السماء لم يَظهر للملائكة وقوعُ الـمُخْبَر، ولم يحتاجوا إلىٰ أن يبيِّن لهم فضلَه وشرفَه وعِلمَه المتضمِّن ردَّ قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؛ فإنهم إنما سألوا هذا السؤال في حقِّ الخليفة المجعول في الأرض، فأما من هو في دار الـخُلد فوق السماء فلم تتوهَّم الملائكةُ منه سفكَ الدِّماء والفسادَ في الأرض، ولا كان إظهارُ فضله وشرفه وعلمه[1] ـ وهو فوق السماء ـ برادٍّ لقولهم وجوابًا لسؤالهم، بل الذي يحصلُ به جوابهم وضدُّ ما توهَّموه إظهارُ تلك الفضائل

---

(١) في (ح، ن) هنا زيادة: «ظاهر في أنه في أول الأمر جعله خليفة في الأرض». وستأتي في موضعها الصحيح بعد قليل.

والعلوم منه وهو في محلِّ خلافته التي خُلِقَ لها وتوهَّمت الملائكة أنه لا يحصلُ منه هناك إلا ضدُّها من الفساد وسفك الدِّماء. وهذا واضحٌ لمن تأمَّله.

وأمَّا ٱسمُ الفاعل وهو ﴿جَاعِلٌ﴾ وإن كان بمعنىٰ الاستقبال، فلأنَّ هذا إخبارٌ عمَّا سيفعلُه الربُّ تعالىٰ في المستقبل مِنْ جَعْلِه الخليفة في الأرض، وقد[1] صدقَ وعدَه، ووقع ما أخبر به، وهذا ظاهرٌ في أنه من أوَّل الأمر جعله خليفةً في الأرض.

وأمَّا جعلُه في السماء أوَّلًا ثم جعلُه خليفةً في الأرض ثانيًا، وإن كان مما لا ينافي الاستخلافَ المذكور، فهو مما لا يقتضيه اللفظُ بوجه، بل يقتضي ظاهرُه خلافَه، فلا يصارُ إليه إلا بدليلٍ يُوجِبُ المصيرَ إليه؛ وحوله ندندن.

قالوا: وأيضًا؛ فمن المعلوم الذي لا يخالفُ فيه مسلمٌ أنَّ الله سبحانه خلقَ آدمَ من تراب، وهو ترابُ هذه الأرض بلا ريب.

كما روىٰ الترمذيُّ في «جامعه»[2] من حديث عوف، عن قَسَامة بن زهير، عن أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الله تبارك وتعالىٰ خلقَ آدمَ من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم علىٰ قَدْرِ الأرض، فجاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسَّهْل والحَزْن، والخبيث والطَّيب**». قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيح». وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» من طرقٍ عدَّة.

---

(١) (ح، ن): «وبه».

(٢) (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٦٩٣)، وأحمد (٤/ ٤٠٠)، وغيرهم.

وصححه ابن حبان (٦١٦٠، ٦١٨١)، والحاكم (٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) ولم يتعقبه الذهبي.

وقد أخبر سبحانه أنه خلقه من تراب، وأخبر أنه خلقه من سُلالةٍ من طين، وأخبر أنه خلقه من صلصالٍ من حَمَإٍ مسنون.

والصَّلصال، قيل فيه: هو الطِّينُ اليابسُ الذي له صلصلةٌ ما لم يُطْبَخ، فإذا طُبِخَ فهو فَخَّار. وقيل فيه: هو المتغيِّر الرائحة، من قولهم: صَلَّ، إذا أنتن.

والحمأ: الطِّينُ الأسود المتغيِّر.

والمَسْنُون، قيل: المصبوب، مِن: سَنَنْت الماء، إذا صببته. وقيل: المُنْتِنُ[1]، مِن قولهم: سَنَنْت الحَجَر علىٰ الحَجَر، إذا حككته، فإذا سال بينهما شيءٌ فهو سَنِينٌ، ولا يكونُ إلا منتنًا.

وهذه كلُّها أطوارٌ للتراب الذي هو مبدؤه الأول[2].

كما أخبر عن خلقِ الذرِّية من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة[3]، وهذه أحوالُ النطفة التي هي مبدأ الذرِّية.

ولم يُخْبِر سبحانه أنه رفعه من الأرض إلىٰ فوق السموات، لا قبل التَّخليق ولا بعده، وإنما أخبر عن إسجاد الملائكة له، وعن إدخاله الجنة، وما جرىٰ له مع إبليس بعد خلقه، فأخبر سبحانه بالأمور الثلاثة في نَسَقٍ واحد، مرتبطًا بعضُها ببعض.

قالوا: فأين الدليلُ الدَّالُّ علىٰ إصعاد مادَّته، وإصعاده بعد خلقه إلىٰ فوق

---

(١) مهملة في (د، ق، ت، ن). (ح): «المنتن المسن».

(٢) انظر: «تفصيل النشأتين» للراغب (٧٢).

(٣) (د، ح، ت، ن): «من نطفة ومن علقة ومن مضغة».

السموات؟ هذا مما لا دليلَ لكم عليه أصلًا، ولا هو لازمٌ من لوازم ما أخبر اللهُ به.

قالوا: ومن المعلوم أنَّ ما فوق السموات ليس بمكانٍ للطِّين الأرضي، المتغيِّر الرائحة، الذي قد أنتَن من تغيُّره، وإنما محلُّ هذا الأرض التي هي محلُّ المتغيِّرات والفاسدات[1]، وأما ما كان فوق الأفلاك فلا يلحقُه تغيُّرٌ ولا نَتَن، ولا فسادٌ ولا ٱستحالة.

قالوا: وهذا أمرٌ لا يرتابُ فيه العقلاء.

قالوا: وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، فأخبَر سبحانه أنَّ هذا العطاءَ في جنة الـخُلد غير مقطوع، وما أُعطِيَه آدمُ فقد ٱنقطع؛ فلم تكن تلك جنةَ الـخُلد.

قالوا: وأيضًا؛ فلا نزاع في أنَّ الله تعالىٰ خلق آدمَ في الأرض كما تقدَّم، ولم يذكر في قصَّته أنه نقله إلىٰ السماء، ولو كان تعالىٰ قد نقله إلىٰ السماء لكان هذا أولىٰ بالذِّكر؛ لأنه من أعظم أنواع النعم عليه، وأكبر[2] أسباب تفضيله وتشريفه، وأبلغُ في بيان آيات قدرته وربوبيته وحكمته، وأبلغُ في بيان المقصود من عاقبة المعصية، وهو الإهباطُ من السماء التي نُقِلَ إليها، كما ذكر ذلك في حقِّ إبليس.

فحيثُ لم يجئ في القرآن ولا في السنة حرفٌ واحدٌ أنه نقله إلىٰ السَّماء

---

(١) (ت) «والفسادات».

(٢) (ح، ن): «وأكثر».

ورفعه إليها بعد خلقه في الأرض، عُلِمَ أنَّ الجنةَ التي أُدخِلَها لم تكن هي جنة الـخُلد التي فوق السماوات.

قالوا: وأيضًا؛ فإنه سبحانه أخبر في كتابه أنه لم يخلق عبادَه عبثًا ولا سدًى، وأنكر علىٰ من زعم ذلك؛ فدلَّ علىٰ أنَّ هذا منافٍ للحكمة[1]، ولو كانت جنةُ آدم هي جنةَ الـخُلد لكانوا قد خُلِقوا في دارٍ لا يُؤمرون فيها ولا يُنْهَون، وهذا باطلٌ بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، قال الشافعيُّ وغيره: معطَّلًا لا يؤمرُ ولا يُنهىٰ[2]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فهو تعالىٰ لم يخلقهم عبثًا، ولا تركهم سدًى، وجنةُ الـخُلد لا تكليف فيها.

قالوا: وأيضًا؛ فإنه خلقها جزاءً للعاملين، بقوله تعالىٰ: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وجزاءً للمتقين، بقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، ودارَ الثواب، بقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فلم يكن لِيُسْكِنَها إلا مَن خلقَها لهم من العاملين، ومن المتقين، ومَن تَبِعَهم من ذرِّياتهم، وغيرهم من الـحُور والولدان.

وبالجملة؛ فحكمتُه تعالىٰ ٱقتضت أنها لا تُنالُ إلا بعد الابتلاء والامتحان، والصَّبر والجهاد، وأنواع الطَّاعات، وإذا كان هذا مقتضىٰ حكمته فإنه سبحانه لا يفعلُ إلا ما هو مطابقٌ لها.

---

(١) (ح، ن): «الحكمته».

(٢) انظر: «الرسالة» (٢٥)، و«إبطال الاستحسان» (٩/ ٦٨ - الأم)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٨٣).

قالوا: فإذا جُـمِعَ مـا أخبر اللهُ عزَّ وجـلَّ بـه، مِـن أنـه خلقـه مـن الأرض، وجعله خليفةً في الأرض، وأنَّ إبليسَ وسوسَ له في مكانـه الـذي أسكنه فيـه بعد أن أهبط إبليسَ مـن السماء، وأنـه أخبر ملائكتَه أنه جاعـلٌ في الأرض خليفة، وأنَّ دارَ الـخُلدِ لا لغو فيهـا ولا تـأثيم، وأنَّ مـن دخلهـا لا يخـرجُ منهـا أبـدًا، وأنَّ مـن دخلهـا يَـنْعَمُ لا يبـأس[1]، وأنـه لا يخـافُ ولا يحـزن، وأنَّ الله سبحانه حرَّمها علىٰ الكـافرين، وعـدوُّ الله إبليسُ أكفـرُ الكـافرين، فمحـالٌ أن يدخلها أصلًا، لا دخولَ عبورٍ ولا دخـولَ قـرار، وأنهـا دارُ نعـيم لا دارُ ٱبتلاء وامتحان، إلىٰ غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف جنة الـخُلد للجنة التـي أُسْكِنَها آدم.

إذا جُـمِعَ ذلك بعضه إلىٰ بعض، ونُظِرَ فيه بعين الإنـصاف والتَّجـرُّد عـن نصرة المقالات، تبيَّن الصَّوابُ من ذلك، والله المستعان.

قال الآخرون[2]: «بل الجنةُ التي أُسْكِنَها آدمُ عنـد سـلف الأمـة وأئمتهـا وأهل السنة والجماعة هي جنةُ الـخُلد، ومن قال: إنها كانت جنـةً في الأرض بأرض الهند، أو بأرض جُدَّة، أو غـير ذلـك، فهـو مـن المتفلسفة والملحـدين والمعتزلة، أو من إخوانهم المتكلِّمين المبتـدعين؛ فـإنَّ هـذا يقولُـه مـن يقولـه من المتفلسفة والمعتزلة، والكتابُ[3] يردُّ هذا القول، وسـلفُ الأمـة وأئمتهـا متفقونَ علىٰ بطلان هذا القول.

---

(١) كذا في الأصول. بحذف حرف العطف.

(٢) هذا جواب ابن تيمية في المسألة. انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٤٧ - ٣٤٩). وقد صحَّح في «النبوات» (٧٠٥ - ٧١٠) القول بـأن جنـة آدم لم تكـن في السماء، وإنـما كانت في مكان عالٍ من الأرض، واحتجَّ له. ولم يتبين لي أيُّ القولين استقر عليه.

(٣) في «الفتاوى»: «والكتاب والسنة».

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٤ - ٣٦]؛ فقد أخبَر سبحانه أنه أمرهم بالهبوط، وأنَّ بعضهم لبعض عدوٌّ، ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وهذا يبيِّن أنهم لم يكونوا في الأرض، وإنما أُهبِطُوا إلىٰ الأرض، فإنهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا منها إلىٰ أرضٍ أخرىٰ، كما ٱنتقل قومُ موسىٰ من أرضٍ إلىٰ أرض، كان مستقرُّهم ومتاعُهم إلىٰ حينٍ في الأرض قبل الهبوط، كما هو بعده. وهذا باطل».

قالوا: «وقد قال تعالىٰ في سورة الأعراف لما قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ فقولُه: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ يبيِّن ٱختصاصَ الجنة التي في السماء بهذا الحكم، بخلاف جنة الأرض، فإنَّ إبليس كان غير ممنوعٍ من التكبُّر فيها.

والضميرُ في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ عائدٌ إلىٰ معلوم، وإن كان غير مذكورٍ في اللفظ؛ لأنَّ العلمَ به أغنىٰ عن ذِكْره».

قالوا: «وهذا بخلاف قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]؛ فإنه لم يذكر هنا[١] ما أُهبِطوا منه، وإنما ذكر ما أُهبِطوا إليه،

---

(١) في «الفتاوى»: «هناك».

بخلاف إهباط إبليس، فإنه ذكر مبدأ هبوطه وهو الجنة، والهبوط يكونُ من عُلْوٍ إلىٰ سُفْل، وبنو إسرائيل كانوا بجبال الشَّراة[1] المُشْرِفة علىٰ المِصر

---

(١) (د، ق، ت): «السراة» بالمهملة. و«السراة»: جبالٌ متصلةٌ من أقصى اليمن إلى الشام، كما يقول الهمداني في «صفة جزيرة العرب» (٩٩). وانظر: «الروض المعطار» (٨٢١)، و«معجم البلدان» (٣/ ٢٠٥). والمراد هنا أطرافها من جهة الشام، حيث كان بنو إسرائيل. قال المقريزي: «وقد ذُكر أن موسى عليه السلام سار ببني إسرائيل بعد موت أخيه هارون إلى أرض أولاد العيص، وهي التي تعرف بجبال الشراة (في المطبوعة بالمهملة) جنب بلد الشوبك». والشوبك تقع جنوب الأردن، شمال غرب معان. انظر: «المواعظ والاعتبار» (١/ ١٨٦)، و«جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (٥١١).
وقد اصطُلِح على جعل ما كان من جبال السراة في جنوب الجزيرة بالمهملة، وما كان في شمالها بالمعجمة، وتُذكَر مواضع منها في بعض المصادر في مواد مختلفة بالمعجمة وبالمهملة، لتقارب ما بين الحرفين، وكلها أجزاء من تلك الجبال الممتدة، وذكرها من صنَّف فيما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأماكن، كالحازمي وغيره.
وهاهنا مذهبٌ آخر غريبُ المنزع في موضع سكنىٰ بني إسرائيل، افترعه الدكتور كمال صليبي (وهو مؤرخٌ ماروني) بكتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» الذي أحدث صخبًا كبيرًا في الأوساط العلمية (ولم تقبل الكثير من دور النشر الأجنبية إصدار الأصل الألماني منه أو ترجمته الإنجليزية)، ذهب فيه إلى أن البيئة التاريخية للتوراة وأحداثها لم تكن في فلسطين، بل في غرب الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر، في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن، واعتمد على المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة في التوراة بالحرف العبري وأسماء أماكن تاريخية أو حالية في جنوب الحجاز أو بلاد عسير. وتابعه زياد منى في كتابه «جغرافية التوراة». وردَّ عليه علامة الجزيرة حمد الجاسر وغيره. وانظر: مذكرات كمال صليبي «طائر على سنديانة»، و«مجلة مجمع اللغة العربية» بالقاهرة (العدد: ٩٩).
وتحرفت العبارة في «الفتاوى» إلى: «حيال السراة».

الذي يهبطونَ إليه، ومَن هبط من جبلٍ إلىٰ وادٍ قيل له: ٱهبط[1]».

قالوا: «وأيضًا، فبنو إسرائيل كانوا يسيرون ويرحلون، والذي يسيرُ ويرحل إذا جاء بلدةً يقال: نزَل فيها؛ لأنَّ مِن عادته أن يركبَ في مسيره، فإذا وصلَ نزل عن دوابِّه.

ويقال: نزل العدوُّ بأرض كذا، ونزل القَفَلُ[2]، ونحوه.

ولفظُ النزول كلفظ الهبوط، فلا يستعملُ «نزَل» و«هبَط» إلا إذا كان من عُلوٍ إلىٰ سُفْل.

وقال تعالىٰ عقب قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾؛ فهذا دليلٌ علىٰ أنهم لم يكونوا قبل ذلك في مكانٍ فيه يحيَون وفيه يموتون ومنه يُخْرَجون، وإنما صاروا إليه بعد الإهباط؛ فلو كانوا في الأرض أولًا لكانوا في مكانٍ فيه يحيَون، وفيه يموتون، ومنه يُخْرَجون[3]، والقرآنُ صريحٌ في أنهم إنما صاروا إليه بعد الإهباط».

قالوا: «ولو لم يكن في هذا إلا قصةُ آدم وموسىٰ لكانت كافية[4]؛ فإنَّ موسىٰ عليه السلام إنما لام آدم عليه السلام لِمَا حصل له ولذريَّته بالخروج

---

(١) (ن): «هبط».

(٢) القُفول: الرجوع من السفر. ورجلٌ قافلٌ من قومٍ قُفَّال. والقَفَلُ اسم الجمع. «اللسان» (قفل).

(٣) من قوله: «وإنما صاروا...» إلى هنا ساقط من (ق، ح)، لانتقال النظر.

(٤) أخرجها البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة.

من الجنة من النَّكدِ والمشقَّة، فلو كانت بستانًا في الأرض لكان غيرُه من بساتين الأرض يُعَوِّضُ عنه، وموسىٰ أعظمُ قدرًا من أن يلومه علىٰ أن أخرج نفسه وذريته من بستانٍ في الأرض».

قالوا: «وكذلك قولُ آدم يوم القيامة لـمَّا يرغبُ إليه الناسُ أن يستفتحَ لهم باب الجنة، فيقول: «**وهل أخرجكم منها إلا خطيئةُ أبيكم؟**»؛ فإنَّ ظهورَ هذا في كونها جنةَ الخُلد، وأنه ٱعتَذر لهم بأنه لا يَحْسُنُ منه أن يستفتحها وقد أُخرِجَ منها بخطيئته، مِن أظهر الأدلَّة».

قال الأولون: أما قولكم: «إنَّ من قال: إنها جنةٌ في الأرض، فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة، أو من إخوانهم»، فقد أوجدناكم[1] من قال بهذا، وليس من أحدٍ من هؤلاء.

ومشاركةُ أهل الباطل للمُحِقِّ في المسألة لا يدلُّ علىٰ بطلانها، ولا تكونُ إضافتها لهم[2] موجبةً لبطلانها ما لم يَخْتَصَّ بها[3].

فإن أردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء، فليس كذلك، وإن أردتم أنَّ هؤلاء من جملة القائلين بهذا، لم يُفِدْكم شيئًا.

قالوا: وأمَّا قولكم: «وسلفُ الأمة وأئمتُها متفقون علىٰ بطلان هذا القول»، فنحن نطالبكم بنقلٍ صحيح عن واحدٍ من الصحابة ومن بعدهم من أئمة السلف، فضلًا عن ٱتفاقهم.

---

(١) (ت): «أخبرناكم».

(٢) (ق، ت): «إليهم».

(٣) أي: أهل الباطل.

قالوا: ولا يوجدُ عن صاحبٍ ولا تابعٍ ولا تابعِ تابعٍ[1] خبرٌ يصحُّ موصولًا ولا شاذًّا ولا مشهورًا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: إنَّ الله تعالىٰ أسكن آدم جنةَ الخُلد التي هي دارُ المتقين يوم المعاد.

قالوا: وهذا القاضي منذرُ بن سعيد قد حكىٰ عن غير واحدٍ من السلف أنها ليست جنةَ الخُلد، فقال: ونحن نُوجِدُكم أنَّ أبا حنيفة فقيهَ العراق ومن قال بقوله قد قالوا: إنَّ جنةَ آدم التي خلقها الله ليست جنةَ الخُلد، وليسوا عند أحدٍ من العالمين[2] من الشاذِّين، بل من رؤساء المخالفين، وهذه الدَّواوينُ مشحونةٌ من علومهم.

وقد ذكرنا قول ٱبن عيينة.

وقد ذكر ٱبن مُزَيْن[3] في «تفسيره» قال: «سألتُ ٱبن نافع[4] عن

---

(١) (د، ق، ح، ت): «تابع التابع».

(٢) (ح، ت، ن): «العلماء».

(٣) يحيى بن إبراهيم بن مزين، الفقيه، الطليطلي الأندلسي (ت: ٢٦٠)، كان حافظًا لموطأ الإمام مالك، فقيهًا فيه، وصنَّف عليه كتبًا، منها: «تفسير الموطأ»، وهو المراد هنا، والنقل عنه كثيرٌ في كتب المالكية، تارةً بإفراد لفظة «التفسير»، وتارةً بإضافتها إلى «الموطأ». وسيأتي النقل من كتابه (ص: ٣٨٩). ولا أدري أوقف عليها المصنف أم نقل عنها بواسطة؟ وإن كان النقل الذي هنا يشبه أن يكون عن المنذر بن سعيد. ترجمته في: «تاريخ علماء الأندلس» (٢/ ١٨١)، و«ترتيب المدارك» (٤/ ٢٣٨)، وغيرهما.

(٤) عبد الله بن نافع الزبيري، الفقيه، صاحب مالك (ت: ٢١٦). ترجمته في: «ترتيب المدارك» (٣/ ١٤٥)، و«السير» (١٠/ ٣٧٤).

ويبعد أن يكون المقصود عبد الله بن نافع الصائغ؛ فإنَّ ابن مزين يصغُر عن لقائه. =

الجنة: أمخلوقة؟ فقال: السُّكوت عن هذا أفضل».

قالوا: فلو كان عند ٱبن نافع أنَّ الجنةَ التي أُسْكِنها آدمُ هي جنةُ الـخُلد لم يشكَّ أنها مخلوقة، ولم يتوقَّف في ذلك.

وقال ٱبن قتيبة في كتابه «غريب القرآن»[1] في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾: «قال ٱبنُ عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح: هو كما يقال: هَبَط فلان أرضَ كذا وكذا». ولم يذكر في كتابه غيرَه.

فأين إجماعُ سلف الأمة وأئمَّتها؟!

قالوا: وأما احتجاجُكم بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ عقب قوله: ﴿ٱهْبِطُواْ﴾؛ فهذا لا يدلُّ علىٰ أنهم كانوا في جنة الـخُلد؛ فإنَّ أحدَ الأقوال في المسألة أنها كانت جنةً في السماء غيرَ جنة الـخُلد، كما حكاه الماورديُّ في «تفسيره»، وقد تقدم.

وأيضًا؛ فإنَّ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ يدلُّ علىٰ أنَّ لهم مستقرًّا إلىٰ حينٍ في الأرض المنقطعة عن الجنة ولا بد؛ فإنَّ الجنةَ أيضًا لها أرض، قال الله تعالىٰ عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، فدلَّ علىٰ أنَّ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أنَّ المراد به الأرض الخالية من تلك

= وكثيرًا ما تختلط رواية الاثنين عند الفقهاء، كما يقول القاضي عياض في مقدمة «ترتيب المدارك» (١/ ١٧).

(١) (٤٦).

الجنة، لا كلُّ ما يسمَّىٰ أرضًا. وكان مستقرُّهم الأولُ في أرض الجنة، ثم صاروا في أرض الابتلاء والامتحان، ثم يصيرُ مستقرُّ المؤمنين يوم الجزاء أرضَ الجنة أيضًا؛ فلا تدلُّ الآيةُ علىٰ أنَّ جنةَ آدم هي جنةُ الـخُلد.

قالوا: وهذا هو الجوابُ بعينه عن ٱستدلالكم بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾؛ فإنَّ المرادَ به الأرض التي أُهبِطُوا إليها وجُعِلَت مسكنًا لهم بدلَ الجنة، وهذا تفسيرُ المستقَرِّ المذكور في «البقرة» مع تضمُّنه ذِكْرَ(1) الإخراج منها.

قالوا: وأما قولُه تعالىٰ لإبليس: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، وقولُكم: إنَّ هذا إنما هو في الجنة التي في السماء، وإلا فجنةُ الأرض لم يُمْنَع إبليسُ من التكبُّر فيها= فهو دليلٌ لنا في المسألة؛ فإنَّ جنةَ الـخُلد لا سبيل لإبليس إلىٰ دخولها والتكبُّر فيها أصلًا، وقد أخبر تعالىٰ أنه وسوسَ لآدمَ وزوجه، وكَذَبهما، وغرَّهما، وخانهما، وتكبَّر عليهما، وحسدهما، وهما حينئذٍ في الجنة، فدلَّ علىٰ أنها لم تكن جنةَ الـخُلد، و محالٌ أن يصعدَ إليها بعد إهباطه وإخراجه منها.

قالوا: والضمير في قوله: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ إمَّا أن يكون عائدًا إلىٰ السماء، كما هو أحدُ القولين، وعلىٰ هذا فيكونُ سبحانه قد أهبطه من السماء عقب ٱمتناعه من السجود، وأخبر أنه ليس له أن يتكبَّر فيها، ثمَّ تكبَّر وكذب وخان في الجنة؛ فدلَّ علىٰ أنها ليست في السماء.

أو يكونَ عائدًا إلىٰ الجنة، علىٰ القول الآخر، ولا يلزمُ من هـذا القول أن

---

(1) (ت): «ذلك».

تكونَ الجنةُ التي كاد فيها آدمَ وغرَّه وقاسَمه كاذبًا هي تلك التي أُهبِط منها، بل القرآنُ يدلُّ علىٰ أنها غيرها، كما ذكرناه.

فعلىٰ التقديرين، لا تدلُّ الآيةُ علىٰ أنَّ الجنةَ التي جرىٰ لآدمَ مع إبليس ما جرىٰ فيها هي جنةُ الـخُلد.

قالوا: وأمَّا قولكم: إنَّ بني إسرائيل كانوا بجبال الشَّراة الـمُشْرِفَة علىٰ الأرض التي يهبطون إليها، وهم كانوا يسيرون ويرحلون، فلذلك قيل لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾= فهذا حقٌّ لا ننازعكم فيه، وهو بعينه جوابٌ لنا؛ فإنَّ الهبوطَ يدلُّ علىٰ أنَّ تلك الجنةَ كانت أعلىٰ من الأرض التي أُهبِطُوا إليها، وأمَّا كونُها جنةَ الـخُلد فلا.

قالوا: والفرقُ بين قوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ وقوله: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا﴾ بأنَّ الأول متضمِّنٌ لنهاية الهبوط وغايته، و﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا﴾ متضمِّنٌ لمبدئه وأوله= لا تأثير له فيما نحن فيه؛ فإنَّ «هبَط من كذا إلىٰ كذا» يتضمنُ معنىٰ الانتقال من مكانٍ عالٍ إلىٰ مكانٍ سافل، فأيُّ تأثيرٍ لابتداء الغاية ونهايتها في تعيين محلِّ الهبوط بأنه جنةُ الـخُلد؟!

قالوا: وأمَّا قصةُ موسىٰ ولَوْمِه لآدم علىٰ إخراجه من الجنة، فلا يدلُّ علىٰ أنها جنةُ الـخُلد.

وقولُكم: «لا يُظَنُّ بموسىٰ أنه يلومُ آدمَ علىٰ إخراجه نفسَه وذريتَه من بستانٍ في الأرض» تشنيعٌ لا يفيد شيئًا؛ أفترىٰ كان ذلك بستانًا مثل آحاد هذه البساتين المقطوعة الممنوعة، التي هي عُرْضةُ الآفات، والتعب والنَّصَب، والظَّمأ والضُّحِيِّ[1]، والسَّقي والتلقيح، وسائر وجوه النَّصَب الذي يلحقُ

(١) ضحا الرجلُ، يَضْحَىٰ، ضُحِيًّا: إذا أصابه حرُّ الشمس. «اللسان» (ضحا).

هذه البساتين؟!

ولا ريب أنَّ موسىٰ عليه الصلاةُ والسلام أعلمُ وأجلُّ من أن يلوم آدم علىٰ خروجه وإخراج بنيه من بستانٍ هذا شأنه، ولكنْ من قال بهذا؟!

وإنما كانت جنةً لا تلحقُها آفة، ولا تنقطعُ ثمارُها، ولا تغورُ أنهارُها، ولا يجوعُ ساكنُها ولا يظمىٰ، ولا يضحىٰ للشمس ولا يعرىٰ، ولا يمسُّه فيها التعبُ والنصبُ والشقاء، ومثلُ هذه الجنة يَحْسُنُ لومُ الإنسان علىٰ التسبُّب في خروجه منها.

قالوا: وأما ٱعتذارُ آدم ﷺ يوم القيامة لأهل الموقف بأنَّ خطيئتَه هي التي أخرجتهم[1] من الجنة، فلا يَحْسُنُ أن يستفتحَها لهم؛ فهذا لا يستلزمُ أن تكونَ هي بعينها التي أُخرِجَ منها، بل إذا كانت غيرَها كان أبلغَ في الاعتذار؛ فإنه إذا كان الخروجُ من غير جنة الخُلد حصل بسبب الخطيئة، فكيف يليقُ ٱستفتاحُ جنة الخُلد والشفاعةُ فيها وقد خَرَج من غيرها بخطيئة؟!

فهذا موقفُ نظر الفريقين، ونهايةُ أقدام الطائفتين، فمن كان عنده[2] فضلُ علمٍ في هذه المسألة فَلْيَجُدْ به، فهذا وقتُ الحاجة إليه، ومن عَلِمَ منتهىٰ خطوته، ومقدار بضاعته، فَلْيَكِلِ الأمرَ إلىٰ عالمه، ولا يرضىٰ لنفسه بالتنقُّصِ[3] والإزراء عليه، وليكن من أهل التُّلول الذين هم نَظَّارةُ الحرب،

---

(١) كذا في الأصول. وفي (ط): «أخرجته».

(٢) (ق): «له».

(٣) (ق): «بالتنقيص». وفي (ت): «بالنقيص والإزراء بالنقص عليه».

إذا لم يكن من أهل الكرِّ والفرِّ والطَّعن والضَّرب، فقد تلاقت الفحول، وتطاعنت الأقران، وضاق بهم المجالُ في حلبة هذا الميدان.

إذا تلاقىٰ الفحولُ في لَـجَبٍ فكيف حالُ البعوض في الوَسَطِ[1]

فهذه معاقدُ حجج الطائفتين مُجْتازةٌ ببابك، وإليك تُساق، وهذه بضائعُ تجَّار العلماء ينادىٰ عليها في سوق الكساد، لا في سوق النَّفاق، فمن لم يكن لديه شيءٌ من أسباب البيان والتبصرة، فلا يَعْدَم مَنْ قد ٱستفرغ وُسْعَه وبذل جهدَه منه التصويبَ أو المعذرة، ولا يرضىٰ لنفسه بشرِّ الخُطَّتين، وأبخس الحظَّين: جهلِ الحقِّ وأسبابه، ومعاداةِ أهله وطُلَّابه.

وإذا عَظُمَ المطلوب، وأعْوَزَكَ الرفيقُ الناصحُ العليم، فترحَّل[2] بهمَّتك من بين الأموات، وعليك بمعلِّم إبراهيم؛ فقد ذكرنا في هذه المسألة من النقول والأدلَّة والنُّكت البديعة ما لعلَّه لا يوجدُ في شيءٍ من كتب المصنِّفين، ولا يعرفُ قدرَه إلا من كان من الفضلاء المُنْصِفين.

ومن الله سبحانه الاستمداد، وعليه التوكُّل وإليه الاستناد، فإنه لا يخيبُ من توكَّل عليه، ولا يضيعُ من لاذ به وفوَّض أمرَه إليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فصل

ولـمَّا أهبط الله آدمَ من الجنة، وعرَّضه وذريتَه لأنواع المحن والبلاء؛

---

(١) البيت في «الحيوان» (٧/ ٩٠)، و«عيون الأخبار» (٢/ ١٢٨)، و«التمثيل والمحاضرة» (٣٣٣) لبعض المولدين. وفي جميعها: «الفيول وازدحمت».

(٢) (ق، د): «فارحل».

أعطاهم أفضلَ مما منعهم، وهو عهدُه الذي عَهِدَ إليه وإلىٰ بنيه، وأخبر أنه من تمسَّك به منهم صار إلىٰ رضوانه ودار كرامته.

قال تعالىٰ عقب إخراجه منها: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وفي الآية الأخرىٰ قال: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

فلمَّا كَسَرَه سبحانه بإهباطه من الجنة جَبَرَه وذريتَه بهذا العهد الذي عَهِدَه إليهم، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، وهذه هي «إنْ» الشرطية المؤكَّدة بـ «ما» الدالَّة علىٰ ٱستغراق الزمان، والمعنىٰ: أيَّ وقتٍ وأيَّ حينٍ أتاكم منِّي هدىٰ.

وجُعِلَ جوابُ هذا الشرط جملةً أخرىٰ شرطية، وهي قولُه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، كما تقول: إنْ زرتني فمن بشَّرني بقدومك فهو حُرٌّ.

وجوابُ الشرط يكونُ جملةً تامَّة:

* إمَّا خبرًا محضًا، كقولك: إن زرتني أكرمتُك، أو خبرًا مقرونًا بالشرط كهذا، أو مؤكَّدًا بالقسم، أو بـ «إنْ» واللام، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

* وإمَّا طلبًا، كقول النَّبي ﷺ: «إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا ٱستعنتَ فاستعن بالله»[1]، وقوله: «وإذا لَقِيتُموهم فاصبروا»[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وأكثرُ ما يأتي هذا النوعُ مع «إذا» التي تفيدُ[3] تحقيقَ وقوع الشرط؛ لِسِرٍّ[4]، وهو إفادتُه تحقيقَ الطَّلب عند تحقُّق الشرط، أي: فمتىٰ تحقَّق الشرطُ فالطَّلبُ متحقِّق، فأتىٰ بـ «إذا» الدالَّة علىٰ تحقُّق[5] الشرط، فعُلِمَ تحقُّقُ الطَّلب عندها.

وقد يأتي مع «إنْ» قليلًا، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١].

* وإمَّا جملةً إنشائية، كقوله لعبده الكافر: إن أسلمتَ فأنت حرٌّ، ولامرأته: إن فعلتِ كذا فأنتِ طالق، فهذا إنشاءٌ للعتق والطلاق عند وجود الشرط ـ علىٰ رأي ـ، أو إنشاءٌ له حال التعليق، ويتأخَّرُ نفوذُه إلىٰ حين وجود

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣) من حديث ابن عباس.
قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».
وانظر: «الضعفاء» للعقيلي (٣/ ٥٣، ١٧٨، ٣٩٨، ٤/ ٤٢٦)، و«جامع العلوم والحكم» (٣٤٥)، و«نور الاقتباس» (٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث ابن أبي أوفىٰ.

(٣) (ح): «تقيد». (ت): «بقيد».

(٤) «لسر» ليست في (ق، ت).

(٥) (ق): «تحقيق».

الشرط ـ علىٰ رأيٍ آخر ـ. وعلىٰ التقديرين، فجوابُ الشرط جملةٌ إنشائية.

والمقصودُ أنَّ جواب الشرط في الآية المذكورة جملةٌ شرطية، وهي قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهذا الشرطُ يقتضي ٱرتباط الجملة الأولىٰ بالثانية ٱرتباطَ العلة بالمعلول، والسبب بالمسبَّب، فيكونُ الشرطُ الذي هو ملزومٌ علَّةً ومقتضيًا للجزاء الذي هو لازم.

فإن كان بينهما تلازمٌ من الطرفين كان وجودُ كلٍّ منهما بدون وجود الآخر[1] ممتنعًا، كدخول الجنة بالإسلام، وارتفاع الخوف والحزن والضلال والشقاء مع متابعة الهدىٰ.

وهذه عامةُ[2] شروط القرآن والسنة؛ فإنها أسبابٌ وعِلَل، والحكمُ ينتفي بانتفاء علَّته.

وإن كان التلازمُ بينهما من أحد الطرفين كان الشرطُ ملزومًا خاصًّا والجزاءُ لازمًا عامًّا، فمتىٰ تحقَّق الشرطُ الملزومُ الخاصُّ تحقَّق الجزاءُ اللازمُ العامُّ، ولا يلزم العكس، كما يقال: إن كان هذا إنسانًا فهو حيوان، وإن كان البيعُ صحيحًا فالملكُ ثابت.

وهذا غالبُ ما يأتي في قياس الدَّلالة[3]، حيث يكونُ الشرطُ دليلًا علىٰ

---

(١) (ت، ن، ق): «بدون دخول الآخر». (ح): «بدون الآخر».

(٢) (ت): «هي غاية».

(٣) وهو أحد أقسام القياس الثلاثة باعتبار العلة. والمرادُ به: ما كان الجامعُ فيه بين الفرع والأصل هو لازم العلة، أو أثرها، أو حكمها. انظر: «اللمع» (٢٨٨).

الجزاء، فيلزمُ من وجوده وجودُ الجزاء؛ لأنَّ الجزاءَ لازمُه، ووجودُ الملزوم يستلزمُ وجودَ اللازم، ولا يلزمُ من عدمه عدمُ الجزاء.

وإن وقعَ هذا الشرطُ بين علَّةٍ ومعلول؛ فإن كان الحكمُ معلَّلًا بعللٍ صحَّ ذلك، وجاز أن يكون الجزاءُ أعمَّ من الشرط، كقولك: إن كان هذا مرتدًّا فهو حلالُ الدَّم؛ فإنَّ حِلَّ الدَّم أعمُّ من حِلِّه بالردَّة، إلا أن يقال: «إنَّ حكمَ العلَّة المعيَّنة ينتفي بانتفائها، وإن ثبتَ الحكمُ بعلَّةٍ أخرىٰ فهو حكمٌ آخر، وأمَّا حكمُ العلَّة المعيَّنة فمحالٌ أن يبقىٰ[1] مع زوالها»، وحينئذٍ فيعودُ التلازمُ من الطرفين، ويلزمُ من وجود كلِّ واحدٍ من الشرط والجزاء وجودُ الآخر، ومن عدمه عدمُه.

وتمامُ تحقيق هذا في مسألة تعليل الحكم الواحد بعلَّتين؛ وللناس فيه نزاعٌ مشهور، وفصلُ الخطاب فيها: أنَّ الحكمَ الواحدَ إن كان واحدًا بالنَّوع، كحِلِّ الدَّم، وثبوتِ الملك، ونقض الطَّهارة؛ جاز تعليلُه بالعلل المختلفة. وإن كان واحدًا بالعَيْن، كحِلِّ الدَّم بالردَّة، وثبوت الملك بالبيع أو الميراث، ونحو ذلك؛ لم يجُز تعليلُه بعلَّتين مختلفتين. وبهذا التفصيل يزولُ الاشتباه في هذه المسألة، والله أعلم.

ومن تأمَّل أدلَّة الطَّائفتين وجدَ كلَّ ما ٱحتجَّ به من رأىٰ تعليلَ الحكم بعللٍ مختلفةٍ إنما يدلُّ علىٰ تعليل الواحد بالنَّوع بها، وكلُّ من نفىٰ تعليلَ الحكم بعلَّتين إنما يتمُّ دليلُه علىٰ نفي تعليل الواحد بالعَيْن بهما؛ فالقولان عند التحقيق يرجعان إلىٰ شيءٍ واحد[2].

---

(١) (ت): «تبقى». وفي (ق): «ينفي»، وهو تحريف.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ١٦٧)، و«جامع المسائل» (٦/ ٩٠).

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه جعل ٱتباعَ هداه وعَهْده الذي عَهِدَه إلىٰ آدم سببًا ومقتضيًا لعدم الخوف والحزن، والضلال والشقاء، وهذا الجزاءُ ثابتٌ بثبوت الشرط، مُنْتَفٍ بانتفائه، كما تقدَّم بيانُه.

ونفيُ الخوف والحزن عن متَّبع الهدىٰ نفيٌ لجميع أنواع الشرور؛ فإنَّ المكروهَ الذي ينزلُ بالعبد متىٰ عَلِمَ بحصوله فهو خائفٌ منه أن يقع به، وإذا وقع به فهو حزينٌ علىٰ ما أصابه منه، فهو دائمًا في خوفٍ وحزن، فكلُّ[1] خائفٍ حزينٌ، وكلُّ حزينٍ خائفٌ، وكلٌّ من الخوف والحزن يكونُ علىٰ فوت[2] المحبوب وحصول المكروه.

فالأقسامُ أربعة: خوفٌ من فَوْت المحبوب وحصول المكروه، وحزنٌ علىٰ فَوْت المحبوب وحصول المكروه[3]، وهذا جماعُ الشرِّ كلِّه.

فنفىٰ الله سبحانه ذلك عن متَّبع هداه الذي أنزله علىٰ ألسنة رسله، وأتىٰ في نفي الخوف بالاسم الدَّالِّ علىٰ نفي الثبوت واللزوم[4]، فإنَّ أهلَ الجنة لا بدَّ لهم من الخوف في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم القيامة حيثُ يقولُ آدمُ وغيره من الأنبياء: «نفسي، نفسي»؛ فأخبر سبحانه أنهم وإن خافوا فلا خوفٌ عليهم، أي: لا يلحقُهم الخوفُ الذي خافوا منه.

وأتىٰ في نفي الحزن بالفعل المضارع الدَّالِّ علىٰ نفي التجدُّد

---

(١) (ت، ق): «وكل».

(٢) في الأصول: «فعل». وهو تحريف. وسيأتي على الصواب.

(٣) قوله: «وحزن على فوت المحبوب وحصول المكروه» من (ت).

(٤) في قوله عزَّ شأنه: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: ٣٨].

والحدوث[1]، أي: لا يلحقُهم حزنٌ ولا يحدُث لهم إذا تذكَّروا ما سلفَ منهم، بل هم في سرورٍ دائم لا يَعْرِضُ لهم حزنٌ علىٰ ما فات.

وأمَّا الخوف؛ فلمَّا كان تعلُّقه بالمستقبل دون الماضي نفىٰ لحوقَه لهم جملةً، أي: الذي خافوا منه لا ينالهُم ولا يلمُّ بهم. والله أعلم.

فالحزينُ إنما يحزنُ في المستقبل علىٰ ما مضىٰ، والخائفُ إنما يخافُ في الحال مما يستقبل، فلا خوفٌ عليهم[2]، أي: لا يلحقُهم ما خافوا منه، ولا يعرضُ لهم حزنٌ علىٰ ما فات.

وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، فنفىٰ عن متَّبع هداه أمرين: الضلال، والشقاء.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «تكفَّل اللهُ لمن قرأ القرآنَ وعملَ بما فيه أن لا يضلَّ في الدُّنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة»، ثمَّ قرأ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[3].

والآيةُ نفَت مسمَّىٰ الضلال والشقاء عن متَّبع الهدىٰ مطلقًا، فاقتضت

---

(١) في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

(٢) (ت، ن): «فقال لا خوف عليهم».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٧، ١٣/ ٣٧١)، وعبد الرزاق (٣/ ٣٨٢)، والطبري (١٨/ ٣٨٩)، وغيرهم من طرقٍ يصحُّ بها.
وصححه الحاكم (٢/ ٣٨١) ولم يتعقبه الذهبي.
وروي مرفوعًا عند الطبراني في «الأوسط» (٥٤٦٦)، و«الكبير» (١٢/ ٤٨)، ولا يصح.

الآيةُ أنه لا يضلُّ في الدُّنيا ولا يشقىٰ فيها، ولا يضلُّ في الآخرة ولا يشقىٰ فيها؛ فإنَّ المراتبَ أربعة: هدًى وسعادةٌ[1] في الدُّنيا، وهدًى وسعادة[2] في الآخرة.

لكنَّ ٱبنَ عباسٍ رضي الله عنهما ذكَر في كلِّ دارٍ[3] أظهرَ مرتبتَيها؛ فذكَر الضلال في الدُّنيا إذ هو أظهرُ لنا وأقربُ من ذكر الضلال في الآخرة، وذكَر الشَّقاء في الآخرة إذ هو أظهرُ عند الناس من الضلال فيها، بل كثيرٌ من الناس لا يحصُل في ذهنه حقيقةُ الضلال في الآخرة. وأيضًا؛ فضلالُ الدُّنيا أصلُ ضلال الآخرة، وشقاءُ الآخرة مستلزمٌ للضلال فيها.

فنبَّه بكلِّ مرتبةٍ علىٰ الأخرىٰ؛ فنبَّه بنفي ضلال الدُّنيا علىٰ نفي ضلال الآخرة؛ فإنَّ العبدَ يموتُ علىٰ ما عاش عليه، ويُبْعَثُ علىٰ ما مات عليه؛ قال الله تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢]، فأخبر أنَّ من كان في هذه الدَّار ضالًّا فهو في الآخرة أضلُّ.

---

(١) (ح، ن): «وشقاوة». وفي طرة (د): «لعله: وضلال».

(٢) (ق، د، ح، ن): «وشقاوة». والمثبت في الموضعين هو الأشبه بالسياق، ومقابل الهدى: الضلال، ومقابل السعادة: الشقاء.

(٣) (ح، ن): «من كل دار».

وأمَّا نفيُ شقاء الدُّنيا، فقد يقال: إنه لما ٱنتفىٰ عنه الضلالُ فيها[1]، وحصلَ له الهدىٰ، والهدىٰ فيه مِن بَرْدِ اليقين، وطمأنينة القلب، وذَوْقِ طعم الإيمان، وَوَجْدِ[2] حلاوتِه، وفرحة القلب به، وسروره، والتنعُّم به، ومصير القلب حيًّا بالإيمان، مستنيرًا به، قويًّا به، قد نال به غذاءه ودواءه، وشفاءه وحياته، ونورَه وقوَّته، ولذَّته ونعيمَه= ما هو أجلُّ أنواع النعيم[3]، وأطيبُ الطيبات، وأعظمُ اللذات.

قال الله تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا خبرُ أصدق الصادقين، ومَخْبَرُه عند أهله عينُ اليقين، بل حقُّ اليقين؛ فلا بدَّ لكلِّ من عمل صالحًا وهو مؤمنٌ[4] أن يُحْيِيَه اللهُ حياةً طيبةً بحسب إيمانه وعمله.

ولكن يغلطُ الجفاةُ الأجلافُ في مسمَّىٰ الحياة الطيِّبة، حيث يظنُّونها التنعُّمَ بأنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذةَ الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنُّن بأنواع الشهوات؛ ولا ريب أنَّ هذه لذةٌ مشتركةٌ بين

---

(١) لم يُذْكَر جوابُ «لـمَّا»؛ لدلالة الكلام عليه. كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ [يوسف: ١٥]، وبعضهم يجعل قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ هو الجواب، والواو زائدة. ويقابله هنا قوله: «وحصل له الهدى».

(٢) (ق): «فوجد». وليست في (ت). وانظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٤ - تحقيق د. عبد الحميد مدكور).

(٣) السياق: والهدى فيه من برد اليقين... ما هو أجل أنواع النعيم.

(٤) «وهو مؤمن» ساقطة من (ت، ق).

البهائم، بل قد يكونُ حظٌّ كثير من البهائم منها أكثر من حظِّ الإنسان؛ فمن لم يكن عنده لذةٌ إلا اللذةُ التي تشاركهُ فيها السِّباعُ والدوابُّ والأنعامُ فذلك ممن يُنادىٰ من مكانٍ بعيد[1].

ولكن أين هذه اللذةُ من اللذة بأمرٍ إذا خالط بشاشتُه القلوبَ سَلا عن الأبناء والنساء، والأوطان والأموال، والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلِّها والخروج منها رأسًا، وعرَّض نفسَه لأنواع المكاره والمشاقِّ، وهو متحملٌ لهذا[2]، منشرحُ الصدر به، يطيبُ له قتلُ ٱبنه وأبيه وصاحبته وأخيه، لا تأخذُه في ذلك لومةُ لائم.

حتىٰ إنَّ أحدَهم[3] ليتلقَّىٰ الرمحَ بصدره وهو يقول: «فزتُ وربِّ الكعبة».

ويستطيلُ الآخرُ[4] حياتَه حتىٰ يلقي قُوتَه من يده، ويقول: «إنها لحياةٌ طويلةٌ إن صبرتُ حتىٰ آكلها»، ثم يتقدَّمُ إلىٰ الموت فَرِحًا مسرورًا.

ويقول الآخر[5] ـ مع فقره ـ: «لو علم الملوكُ وأبناء الملوك ما نحن

---

(١) قال الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٠): «تقول للرجل الذي لا يفهم قولك: أنت تُنادىٰ من مكانٍ بعيد. وتقول للفَهِم: إنك لتأخذُ الشيء من قريب».
وانظر: «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٨١).

(٢) غير محررة في (د، ت). (ق): «مستحل بهذا». (ن): «متحمل بهذا».

(٣) هو حرام بن ملحان رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٤٠٩٢)، ومسلم (٦٧٧).

(٤) هو عمير بن الحمام رضي الله عنه. أخرج خبره مسلم (١٩٠١).

(٥) هو إبراهيم بن أدهم. أخرج قوله أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٧٠)، والبيهقي في «الزهد» (٨٠)، وغيرهما.

عليه لجالدونا عليه بالسُّيوف».

ويقول الآخر[1]: «إنه لتمرُّ بالقلب أوقاتٌ يرقصُ فيها طربًا».

وقال بعضُ العارفين[2]: «إنه لتمرُّ بي أوقاتٌ، أقولُ فيها: إن كان أهلُ الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيِّب»[3].

ومن تأمَّل قول النبي ﷺ لـمَّا نهاهم عن الوِصَال، فقالوا: إنك تُواصِل فقال: «**إني لستُ كهيئتكم، إني أظلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني**»[4]؛ عَلِمَ أنَّ هذا طعامُ الأرواح وشرابها، وما يفيضُ عليها من أنواع البهجة واللذَّة والسرور والنعيم الذي رسولُ الله ﷺ في الذروة العليا منه، وغيرُه إذا تعلَّق بغباره رأىٰ مُلْكَ الدُّنيا ونعيمَها بالنسبة إليه هباءً منثورًا، بل باطلًا وغرورًا.

وغَلِط من قال: إنه كان يأكلُ ويشربُ طعامًا وشرابًا يغتذي به بدنُه؛ لوجوه[5]:

أحدُها: أنه قال: «**أظلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني**»، ولو كان أكلًا وشربًا لم يكن وصالًا ولا صومًا.

---

(١) هو أبو سليمان الداراني. في «البداية والنهاية» (١٤/ ١٥٢). وانظر: «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٤٧).

(٢) هو أبو سليمان الداراني. نسبه إليه ابن كثير في الموضع السابق.

(٣) وفي (ح): «إنهم لفي النعيم». وفي (ن): «لفي أنعم عيش».

(٤) أخرجه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة.

(٥) انظر: «جامع المسائل» (١/ ١٢٢)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٨٨)، و«زاد المعاد» (٢/ ٣٢، ٤/ ٩٤)، و«أيمان القرآن» (٥٧٩)، و«الداء والدواء» (٤٦٠)، و«شرح مسلم» للنووي (٤/ ٢٢٠)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٠٧)، و«لطائف المعارف» (٣٤٤).

الثاني: أنَّ النبي ﷺ أخبرهم أنهم ليسوا كهيئته في الوصال، فإنهم إذا واصلوا تضرَّروا بذلك، وأمَّا هو ﷺ فإنه إذا واصلَ لا يتضررُ بالوصال. فلو كان يأكلُ ويشربُ لكان الجواب: «وأنا أيضًا لا أواصل، بل آكلُ وأشربُ كما تأكلون وتشربون»، فلمَّا قرَّرهم علىٰ قولهم: إنك تواصل، ولم ينكره عليهم، دلَّ علىٰ أنه كان مواصلًا، وأنه لم يكن يأكلُ أكلًا وشربًا يُفَطِّرُ الصَّائم.

الثالث: أنه لو كان أكلًا وشربًا يُفَطِّرُ الصَّائمَ لم يصحَّ الجوابُ بالفارق بينهم وبينه، فإنه حينئذٍ يكون ﷺ هو وهم مشتركون[1] في عدم الوصال، فكيف يصحُّ الجوابُ بقوله: «**لستُ كهيئتكم**»؟!

وهذا أمرٌ يعلمُه غالبُ الناس، أنَّ القلبَ متىٰ حصلَ له ما يُفْرِحُه ويسرُّه من نيل مطلوبه، ووصال حبيبه، أو ما يغمُّه ويسوؤه ويحزنُه، شُغِلَ عن الطعام والشراب، حتىٰ إنَّ كثيرًا من العشَّاق تمرُّ به الأيامُ لا يأكلُ شيئًا، ولا تطلبُ نفسه أكلًا.

وقد أفصح القائلُ في هذا المعنىٰ:

لها أحاديثُ مِنْ ذكراكَ تَشْغَلُها ... عن الشَّرابِ وتُلْهِيها عن الزَّادِ
لها بوجهكَ نورٌ تستضيءُ به ... ومِنْ حديثك في أعقابها حادِي
إذا ٱشْتكَتْ مِنْ كَلالِ السَّيْرِ أوعدها ... رَوْحَ القُدومِ فتحيا عند ميعادِ[2]

---

(١) كذا في الأصول، بالرفع. والجادة النصب.

(٢) الأول والثاني: لإدريس بن أبي حفصة، يَذْكُر إبلًا، في «ديوان المعاني» (١/ ١٩١)، و«الأنوار» (١/ ٤٠٠)، و«الحماسة البصرية» (١/ ١٥٧)، و«زهر الآداب» (١/ ٥٠٧).
والثالث: أنشده الغزالي في «رسالة الطير» (٧٢- مقالات فلسفية نشرها لويس شيخو)، وأنشده إسماعيل بن إبراهيم المعرِّي في «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (٣/ ٤٣).

والمقصودُ أنَّ الهدىٰ مستلزمٌ لسعادة الدُّنيا، وطِيب الحياة، والنعيم العاجل، وهو أمرٌ يشهدُ به الحِسُّ والوَجْد، وأما سعادةُ الآخرة فغيبٌ يُعْلَمُ بالإيمان، فذكرها ٱبنُ عباسٍ رضي الله عنهما لكونها أهمَّ، وهي الغايةُ المطلوبة، وضلالُ الدُّنيا أظهر، وبالنجاة منه ينجو من كلِّ شرٍّ، وهو أصلُ ضلال الآخرة وشقائها، فلذلك ذكره وحده. والله أعلم.

فصل

وهذان الأصلان[1] ـ أعني: الضلال والشَّقاء ـ يذكرهما سبحانه كثيرًا في كلامه، ويخبرُ أنهما حظُّ أعدائه، ويذكرُ ضدَّهما ـ وهما: الهدىٰ والفلاح ـ كثيرًا، ويخبرُ أنهما حظُّ أوليائه.

أما الأول؛ فكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، فالضلالُ الضلال، والسُّعُر هو الشقاءُ والعذاب، وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وأما الثاني؛ فكقوله تعالىٰ في أول «البقرة» ـ وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم ـ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وكذلك في أول «لقمان»، وقال في «الأنعام»: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

ولما كانت سورةُ أمِّ القرآن أعظمَ سورةٍ في القرآن، وأفرضَها قراءةً علىٰ الأمَّة، وأجمَعها لكلِّ ما يحتاجُ إليه العبد، وأعمَّها نفعًا= ذكَر فيها الأمرين:

---

(١) (ت، د، ق): «الضلالان».

فأمرنا أن نقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فذكر الهدايةَ والنعمة، وهما الهدىٰ والفلاح.

ثمَّ قال: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فذكر المغضوبَ عليهم وهم أهلُ الشقاء، والضَّالِّين وهم أهلُ الضلال، وكلٌّ من الطائفتين له الضَّلالُ والشقاء، لكنْ ذَكَر الوصفين معًا لتكونَ الدَّلالةُ علىٰ كلٍّ منهما بصريح لفظِه.

وأيضًا؛ فإنه ذكر ما هو أظهرُ الوصفين في كلِّ طائفة، فإنَّ الغضب علىٰ اليهود أظهر؛ لعنادهم الحقَّ بعد معرفته، والضلال في النصارىٰ أظهر؛ لغلبة الجهل فيهم، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارىٰ ضالُّون**»[1].

فصل

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ هو خطابٌ لمن أهبطه[2] من الجنة بقوله: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ثم قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وأحمد (٤/ ٣٧٨)، وغيرهما.
قال الترمذي: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب».
وصححه ابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦، ٧٣٦٥).
وروي من وجهٍ آخر أصحَّ من هذا الوجه.
انظر: «مسند الطيالسي» (٢/ ٣٧٢)، و«بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٥١، ٦٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٦٤)، و«فتح الباري» (٨/ ١٥٩).

(٢) (ح، ن): «أهبط».

وكلا الخطابين لأبوي الثَّقلين.

وهو دليلٌ علىٰ أنَّ الجنَّ مأمورون منهيُّون، داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمَّة، وأنَّ نبينا ﷺ بُعِثَ إليهم كما بُعِثَ إلىٰ الإنس، كما لا خلاف بينها أنَّ مسيئهم مستحقٌّ للعقاب. وإنما ٱختلف[1] علماءُ الإسلام في المسلم منهم: هل يدخلِ الجنة[2]؟

فالجمهورُ علىٰ أنَّ محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار.

وقيل: بل ثوابهم سلامتُهم من الجحيم، وأمَّا الجنة فلا يدخلُها أحدٌ من أولاد إبليس، وإنما هي لآدم[3] وصالحي ذريته خاصَّة. وحُكِيَ هذا القولُ عن أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ[4].

واحتجَّ الأولون بوجوه:

أحدها: هذه الآية؛ فإنه سبحانه أخبر أنَّ من ٱتبعَ هداه فلا يخافُ ولا

---

(١) (ق، ت): «اختلفت».

(٢) انظر: «العظمة» لأبي الشيخ (٥/ ١٦٩٦)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٣٣، ١١/ ٣٠٦، ١٣/ ٨٦)، و«النبوات» (١٠١٠)، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١٨٧)، و«إيضاح الدلالة في عموم الرسالة» (١٩/ ٣٨ - مجموع الفتاوىٰ)، و«طريق الهجرتين» (٩١٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٢٠٩)، و«آكام المرجان» للشبلي (٦٧)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٤٦)، و«عمدة القاري» (١٥/ ١٨٤)، و«الأشباه والنظائر» للسيوطي (١/ ٥٠٥)، و«الفروع» (١/ ٦٠٣)، و«المبدع» (٢/ ٥٨)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤٠١)، و«دفع إيهام الاضطراب» (٢٨٤).

(٣) (ن، د، ق): «لبني آدم». وهو خطأ.

(٤) انظر: «غمز عيون البصائر» (٣/ ٤٠٦، ٤١٥).

يحزن، ولا يضلُّ ولا يشقىٰ، وهذا مستلزمٌ لكمال النعيم.

ولا يقال: إنَّ الآية إنما تدلُّ علىٰ نفي العذاب فقط، ولا خلافَ أنَّ مؤمنيهم لا يعاقبون؛ لأنَّا نقول: لو لم تدلَّ الآيةُ إلا علىٰ أمرٍ عدميٍّ فقط لم يكن مدحًا لمؤمني الإنس، ولمَا كان فيها إلا مجردُ أمرٍ عدميٍّ، وهو عدمُ الخوف والحزن.

ومعلومٌ أنَّ سياقَ الآية ومقصودَها إنما أريدَ به أنَّ من اتبعَ هدىٰ الله الذي أنزله حصل له غايةُ النعيم، واندفعَ عنه غايةُ الشقاء، وعبَّر عن هذا المعنىٰ المطلوب بنفي الأمور المذكورة؛ لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أُهبِط آدمُ من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره سبحانه أنه مُعْطِيه وذريته عهدًا من اتبعه منهم انتفىٰ عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء، ومعلومٌ أنه لا ينتفي[1] ذلك كلُّه إلا بدخول دار النعيم[2]، ولكنَّ المقام بذكر التصريح بنفي غاية[3] المكروهات أولىٰ.

الثاني: قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

---

(١) (ن): «ينبغي».

(٢) (ح، ن): «إلا في دار النعيم».

(٣) (ح، ن): «غلبة».

فأخبرَ سبحانه عن نذيرهم ـ إخبار مقرٍّ له[1] ـ: أنَّ من أجابَ داعيه غَفَر له وأجارَه من العذاب.

ولو كانت المغفرةُ لهم إنما ينالونَ بها مجردَ النجاة من العذاب كان ذلك حاصلًا بقوله: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، بل تمامُ المغفرة دخولُ الجنة والنجاةُ من النار، فكلُّ من غُفِرَ له فلا بدَّ له من دخول الجنة.

الثالث: قولُه تعالىٰ في الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]؛ فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ مؤمني الجنِّ والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحدٍ منهم طَمْثٌ لأحدٍ من الحُور، فدلَّ علىٰ أنَّ مؤمنيهم يتأتَّىٰ منهم طمثُ الحور العين بعد الدخول، كما يتأتَّىٰ من الإنس، ولو كانوا ممَّن لا يدخلُ الجنةَ لمَا حَسُنَ الإخبارُ عنهم بذلك[2].

الرابع: قولُه تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٤-٢٥].

والجنُّ منهم مؤمنٌ ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤]، فكما دخلَ كافرُهم في الآية الثانية[3]

(١) (ح): «مقرر له». (ت): «اخبار بقوله».

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٥)، و«حادي الأرواح» (٤٨٤).

(٣) وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]. والأولىٰ هي =

وجبَ أن يدخلَ مؤمنُهم في الآية الأولىٰ(١).

الخامس: قولُه عن صالحيهم: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]، والرَّشَدُ هو الهدىٰ والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن، ومن لم يدخل الجنة لم يَنَلْ غايةَ الرشد، بل لم يحصل له من الرشد إلا مجردُ العدم.

السادس: قولُه تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، ومؤمنُهم ممَّن آمن بالله ورسله؛ فيدخل في المبشَّرين، ويستحقُّ البشارة.

السابع: قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، عَمَّ سبحانه بالدعوة، وخَصَّ بالهداية المُفْضِية إليها، فمن هداه إليها فهو ممَّن دعاه إليها؛ فمن ٱهتدىٰ من الجنِّ فهو من المَدْعُوِّين إليها.

الثامن: قولُه تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن

= قوله قبلها: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

(١) سقط من (ح، ن) قوله: «فكما دخل كافرهم» إلىٰ آخر الآية في الوجه الخامس.

﴿رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٣٢]، وهذا عامٌّ في الجنِّ والإنس، فأخبر[1] تعالىٰ أنَّ لكلِّهم درجاتٍ من عمله، فاقتضىٰ أن يكون لِـمُحْسِنهم درجاتٌ من عمله كما لِـمُحْسِن الإنس.

التاسع: قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤][2].

ووجهُ التمسُّك بالآية من وجوهٍ ثلاثة:

أحدها: عمومُ الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبُه الجزاء المذكور علىٰ الصِّلة[3]؛ ليَدُلَّ علىٰ أنه مُسْتَحَقٌّ بها، وهو قول: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مع الاستقامة، والحكمُ يعمُّ بعموم علَّته؛ فإذا كان دخولُ الجنة مرتَّبًا علىٰ الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة علىٰ أمره، فمن أتىٰ بذلك[4] ٱستحقَّ الجزاء.

---

(١) (ق): «فأخبرهم».

(٢) (ح): «التاسع: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾».

(٣) صلة الموصول. وانظر: «بدائع الفوائد» (٤١٨)، و«طريق الهجرتين» (٧٩٧). وفي (ن، ح): «علىٰ المسألة». وهو خطأ. ويحتمل أن تقرأ: «العلة»، بدلالة ما بعدها.

(٤) (د، ن، ق): «ذلك».

الثالث: أنه قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فدلَّ علىٰ أنَّ كلَّ من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

وقد تقدَّم في أول الآيات قولُه تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وأنه متناولٌ للفريقين، ودلَّت هذه الآية علىٰ أنَّ من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخلَ مسيئُهم النارَ بعدل الله، فدخولُ محسنهم الجنةَ بفضله ورحمته أولىٰ؛ فإنَّ رحمتَه سبقت غضبَه، والفضلُ أغلبُ من العدل.

ولهذا لا يُدْخِلُ النارَ إلا مَن عَمِل أعمالَ أهل النار، وأما الجنةُ فيُدخِلُها من لم يعمل خيرًا قطُّ[(١)]، بل ينشىءُ لها أقوامًا يُسْكِنُهم إياها من غير عملٍ عملوه، ويرفعُ فيها درجات العبد من غير سعيٍ منه، بل بما يصلُ إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البرِّ التي يُهْدُونها إليه[(٢)]، بخلاف النار[(٣)] فإنه لا يُعَذِّبُ فيها بغير عملٍ أصلًا.

وقد ثبت بنصِّ القرآن وإجماع الأمَّة أنَّ مسيء الجنِّ في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنُهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في رَبَض الجنة، يراهم أهلُ الجنة ولا يرونهم،

---

(١) انظر: «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٧٣٢).

(٢) انظر: «التقريب لعلوم ابن القيم» (١٧٢).

(٣) (ن، ح): «أهل النار». وهو خطأ.

كما كانوا في الدُّنيا يرونَ بني آدم من حيثُ لا يرونهم[1]. ومثلُ هذا لا يُعْلَمُ إلا بتوقيفٍ تنقطعُ الحجةُ عنده، فإن ثبتت حجةٌ يجب ٱتباعُها وإلا فهو مما يحكىٰ ليُعْلَم، وصحتُه موقوفةٌ علىٰ الدليل، والله أعلم.

فصل

ومتابعةُ هدىٰ الله التي رتَّب عليها[2] هذه الأمور هي:

* تصديقُ خبره من غير ٱعتراض شبهةٍ تقدحُ في تصديقه.

* وامتثالُ أمره من غير اعتراض شهوةٍ تمنعُ امتثالَه.

وعلىٰ هذين الأصلين مدارُ الإيمان، وهما: تصديقُ الخبر، وطاعةُ الأمر[3].

---

(١) يروىٰ عن بعض السلف. انظر: «طريق الهجرتين» (٩١١)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٤٧)، و«عمدة القاري» (١٥/ ١٨٤).
وذكر ابن تيمية في «الفتاوىٰ» (١٣/ ٨٦) أنه ورد به حديثٌ رواه الطبراني في «المعجم الصغير»، وقال: «يحتاج إلىٰ النظر في إسناده». قلت: لم أجده فيه، ولا في سائر مصنفات الطبراني المطبوعة.
وأخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ٢٩٨)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (١٠١٧)، و«السير» (١٧/ ٨) عن أنس مرفوعًا: أن مؤمني الجن يكونون علىٰ الأعراف، وليس في الجنة مع أمة محمد ﷺ، وأن الأعراف حائط الجنة تجري فيه الأنهار.... قال الذهبي: هذا حديثٌ منكرٌ جدًّا.

(٢) (ح، ن): «الذي رتب عليها».

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (٩٦٧)، و«الإيمان الكبير» (٧/ ٥٩، ١٤٢ - مجموع الفتاوىٰ)، و«قاعدة في المحبة» (١٥٥)، و«أيمان القرآن» (٦٢)، و«الصلاة وحكم تاركها» (٥٨).

ويتبعُهما أمران آخران، وهما:

* نفيُ شبهات الباطل الواردة عليه، المانعة من كمال التصديق[1]، وأن لا يَخْمِشَ بها وجهَ تصديقه.

* ودفعُ شهوات الغيِّ الواردة عليه، المانعة من كمال الامتثال.

فهنا أربعةُ أمور:

أحدها: تصديقُ الخبر.

الثاني: بذلُ الاجتهاد في ردِّ الشبهات التي تُوحيها شياطينُ الجنِّ والإنس في معارضته.

الثالث: طاعةُ الأمر.

الرابع: مجاهدةُ النفس في دفع الشهوات التي تحولُ بين العبد وبين كمال الطاعة.

وهذان الأمران ـ أعني: الشُّبهات، والشَّهوات ـ أصلُ فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده[2]، كما أنَّ الأصلين الأوَّلين ـ وهما: تصديقُ الخبر، وطاعةُ الأمر ـ أصلُ سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده.

وذلك أنَّ العبدَ له قوَّتان:

* قوةُ الإدراك والنظر، وما يتبعُها من العلم والمعرفة والكلام.

* وقوةُ الإرادة والحبِّ وما يتبعُها من النِّية والعزم[3] والعمل. فالشبهةُ

---

(١) (ح): «الامتثال». (ن): «الامتثال الخبر». وكلاهما خطأ.

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٥)، و«الصواعق المرسلة» (٥١٠).

(٣) (ح): «والعلم». تحريف.

تؤثِّر[1] فسادًا في القوة العلمية النظرية ما لم يُداوِها بدفعها، والشهوةُ تؤثِّر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يُداوِها بإخراجها.

قال الله تعالىٰ في حقِّ نبيِّه يذكرُ ما مَنَّ به عليه مِن نزاهته وطهارته مما يلحقُ غيرَه من ذلك: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢]؛ فـ ﴿مَا ضَلَّ﴾ دليلٌ علىٰ كمال علمه ومعرفته، وأنه علىٰ الحقِّ المبين، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ دليلٌ علىٰ كمال رشده وأنه أبرُّ العالمين؛ فهو الكاملُ في علمه وفي عمله.

وقد وصفَ ﷺ بذلك خلفاءه من بعده وأمر باتِّباعهم علىٰ سنَّتهم[2]، فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي**» رواه الترمذيُّ وغيره[3]؛ فالراشدُ ضدُّ الغاوي، والمهديُّ ضدُّ الضالِّ.

وقد قال تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]، فذكر تعالىٰ

---

(١) (ت): «تورث».

(٢) (ح): «سننهم».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، وغيرهم من حديث العرباض بن سارية.
وصححه الترمذي، وابن حبان (٥)، والحاكم (١/ ٩٥) ولم يتعقبه الذهبي، والبزار، وأبو نعيم، والضياء المقدسي، وابن تيمية، وغيرهم. انظر: التعليق علىٰ «ذم الكلام» للهروي (٣/ ١٢٥ - ١٤٨ طبعة الغرباء).

الأصلين، وهما داءُ الأولين والآخرين[1]:

أحدهما: الاستمتاعُ بالخَلاق، وهو النصيبُ من الدُّنيا، والاستمتاعُ به متضمِّنٌ لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر، بخلاف المؤمن فإنه وإن نال من الدُّنيا وشهواتها فإنه لا يستمتعُ بنصيبه كلِّه، ولا يُذْهِبُ طيِّباته في حياته الدُّنيا، بل ينالُ منها ما ينالُ ليتقوَّىٰ به علىٰ التزوُّد لمعاده.

والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة، وهو قولُه: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟﴾، وهذا شأنُ النفوس الباطلة التي لم تُخْلَقْ للآخرة، لا تزالُ ساعيةً في نيل شهواتها، فإذا نالتها فإنما هي في خوضٍ بالباطل[2] الذي لا يُجْدِي عليها إلا الضررَ العاجل والآجل.

ومِنْ تمام حكمة الله تعالىٰ أنه يبتلي هذه النفوسَ بالشقاء والتعب في تحصيل مراداتها وشهواتها، فلا تتفرغُ للخوض بالباطل إلا قليلًا، ولو تفرَّغت هذه النفوسُ الباطوليَّة[3] لكانت أئمَّةً تدعو إلىٰ النار، وهذا حالُ من

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٥)، و«الاستقامة» (١/ ٤٥٤)، و«إعلام الموقعين» (١/ ١٣٦)، و«الصواعق المرسلة» (١٢١٠)، و«رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (١٨)، و«الكلام على مسألة السماع» (١٧٣).

(٢) (ح): «في الباطل».

(٣) المتَّبعة للشَّهوات، نسبةً إلىٰ البَطالة، أو الباطل، علىٰ غير قياس.

وقد وردت هذه النسبة الغريبة في مواضع من كتب المصنف. انظر: «تهذيب السنن» (٣/ ٨١)، و«بدائع الفوائد» (٨٤٦)، و«الكلام على مسألة السماع» (٢٢١)، وما سيأتي (ص: ٥٢٨).

كما وردت في كلام بعض أهل عصره بالدلالة نفسها. انظر: «الوافي» للصفدي (١٣/ ٣٣٤) فيما نقله عن ابن تيمية، و«النصيحة الذهبية» (المنسوبة للذهبي) (٨٦).

تفرَّغ منها كما هو مشاهدٌ بالعيان.

وسواءٌ كان المعنىٰ: «وخضتم كالحزب الذي خاضوا»، أو: «كالفريق الذي خاضوا»؛ فإنَّ «الذي» يكونُ للواحد والجمع، ونظيرُه قولُه تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٤]، لكن لا يجري علىٰ جمع تصحيح، فلا يجيء: «المسلمون الذي جاؤوا»، وإنما يجيءُ غالبًا في ٱسم الجمع، كالحزب، والفريق، أو حيثُ لا يُذْكَرُ الموصوفُ وإن كان جمعًا، كقول الشاعر(١):

وإنَّ الذي حانت بفَلْجٍ(٢) دماؤهم ... هـمُ القـومُ كـلُّ القـوم يـا أمَّ خالـدِ

أو حيثُ يرادُ الجنسُ دون الواحد والعدد، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾، ونظيره الآية التي نحن فيها، وهي قولُه: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾.

= أو كان المعنىٰ علىٰ القول الآخر: «وخضتم خوضًا كالخوض الذي

---

(١) أشهب بن رميلة، في «الكتاب» (١/ ١٨٧)، و«المقتضب» (٤/ ١٤٦)، و«اللآلي» (١/ ٣٥)، وغيرها.

ويروىٰ في بعض المصادر: «وإن الألىٰ» كما في «البيان والتبين» (٤/ ٥٥)، وفي بعضها: «وإن التي» كما في «الخزانة» (٦/ ٢٩)، وعلىٰ هاتين الروايتين فلا شاهد فيه.

(٢) وادٍ في طريق البصرة إلىٰ مكة. «معجم ما استعجم» (٣/ ١٢٠٧). وهو المسمىٰ اليوم بوادي الباطن، وتقع فيه مدينة «حفر الباطن» شمال شرق المملكة العربية السعودية. «المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية» للجاسر (٣/ ١٣١٥).

خاضُوا»؛ فيكونُ صفةً لمصدرٍ محذوف، كقولك: اَضرب كالذي ضَرَبَ، وأحسِنْ كالذي أحسَن، ونظائره. وعلىٰ هذا فيكونُ العائدُ منصوبًا محذوفًا، وحذفُه في مثل ذلك قياسٌ مطَّرد[1].

وعلىٰ القولين، فقد ذمَّهم سبحانه علىٰ الخوض بالباطل واتباع الشهوات، وأخبر أنَّ من كانت هذه حالتُه فقد حَبِط عملُه في الدُّنيا والآخرة، وهو من الخاسرين.

ونظيرُ هذا قولُ أهل النار لأهل الجنة، وقد سألوهم: كيف دخلوها: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٦]، فذكروا الأصلين: الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدِّين، وإيثار الشهوات وما يستلزمُه[2] من ترك الصَّلوات وإطعام ذوي الحاجات.

فهذا الأصلان هما ما هما. والله وليُّ التوفيق.

فصل

والقلبُ السليمُ الذي لا ينجو من عذاب الله إلا من أتىٰ اللهَ به[3] هو القلبُ الذي قد سَلِمَ من هذا وهذا؛ فهو القلبُ الذي قد سلَّم لربِّه، وسلَّم لأمره، ولم تبق فيه منازعةٌ لأمره، ولا معارضةٌ لخبره، فهو سليمٌ مما سوىٰ

(١) انظر: «الدر المصون» (٦/ ٨٣)، و«التبيان» للعكبري (٦٥٠)، و«شرح المفصَّل» (٣/ ١٥٦).

(٢) (ت): «تستلزمه».

(٣) (ن، ح): «والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله».

الله وأمرِه، لا يريدُ إلا الله، ولا يفعلُ إلا ما أمره الله، فالله وحده غايتُه، وأمرُه وشرعُه وسيلتُه وطريقتُه، لا تعترضه شبهةٌ[1] تحولُ بينه وبين تصديق خبره، لكنْ[2] لا تمرُّ عليه إلا وهي مُجْتازة، تعلمُ أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحولُ بينه وبين متابعة رضاه.

ومتىٰ كان القلبُ كذلك فهو سليمٌ من الشرك، وسليمٌ من البدع، وسليمٌ من الغيِّ، وسليمٌ من الباطل، وكلُّ الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك ينتظمُها[3].

وحقيقتُه أنه القلبُ الذي قد سَلَّمَ لعبودية ربِّه حبًّا وخوفًا ورجاءً؛ ففَنِيَ بحبِّه[4] عن حبِّ ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلَّم لأمره ولرسوله تصديقًا وطاعة، كما تقدَّم، واستسلَم لقضائه وقدره فلم يتَّهِمْه ولم يُنازِعْه ولم يتسخَّط لأقداره.

فأسلمَ لربِّه انقيادًا وخضوعًا، وذُلًّا وعبودية، وسلَّم جميعَ أحكامه[5]

---

(١) (ن، ح): «شبه».

(٢) كذا في الأصول. أي: «وقد تعترضه شبهة، لكن لا تمر...» علىٰ الاستدراك، وهو بابُ «لكنْ». فإن كانت للإضراب - وقد تأتي له، انظر: «رصف المباني» (١٩٢) - فالمعنىٰ ظاهر.

(٣) (ح، ن): «يتضمنها». وانظر: «طريق الهجرتين» (٧٥)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٦٨، ٣/ ١٢٢، ٤٨٧)، و«الروح» (٦٠٥)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٧)، و«بدائع الفوائد» (٦٠٠).

(٤) (ح، ن): «فهو غني».

(٥) (ن، ح): «أحواله».

وأقواله وأعماله وأذواقه ومَواجِيده ظاهرًا وباطنًا مِنْ[1] مشكاة رسوله، وعَرَض ما جاء من سواها عليها، فما وافقها قَبِلَه، وما خالفها ردَّه، وما لم يتبيَّن له فيه موافقةٌ ولا مخالفةٌ وقَفَ أمرَه وأرجأه إلىٰ أن يتبيَّن له، وسالمَ أولياءه وحزبه المفلحين الذَّابِّين عن دينه وسنة نبيه، القائمين بها، وعادىٰ أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه، الخارجين عنهما، الدَّاعين إلىٰ خلافهما[2].

فصل

وهذه المتابعةُ هي التلاوةُ التي أثنىٰ الله علىٰ أهلها في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، والمعنىٰ: يتبعون كتاب الله حقَّ ٱتباعه، وقال تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٢].

فحقيقةُ التِّلاوة في هذه المواضع هي التِّلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوةُ اللفظ والمعنىٰ؛ فتلاوةُ اللفظ جزءُ مسمَّىٰ التِّلاوة المطلقة، وحقيقةُ اللفظ إنما هي الاتِّباع، يقال: ٱتلُ أثر فلان، وتلوتُ أثره وقفوتُه وقصصتُه بمعنىٰ تبعتُه خلفَه، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ١ - ٢]، أي: تَبِعَها في الطلوع بعد غيبتها، ويقال: جاء القومُ يتلو بعضُهم بعضًا، أي: يَتْبع.

---

(١) كذا في الأصول. كأنه ضمَّن «سَلَّم» معنىٰ «أخذ» ونحوه.

(٢) (ح، ن): «المخالفين لسنة نبيه... عنها... خلافها».

ويسمَّىٰ تالي الكلام: تاليًا؛ لأنه يُتْبِعُ بعضَ الحروف بعضًا، لا يُخْرِجُها جملةً واحدة، بل يُتْبِعُ بعضَها بعضًا مرتَّبة، كلما ٱنقضىٰ حرفٌ أو كلمةٌ أتبعه بحرفٍ آخر وكلمةٍ أخرىٰ.

وهذه التِّلاوة وسيلةٌ وطريق، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقية، وهي تلاوةُ المعنىٰ واتِّباعُه[1]؛ تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاءً عن نهيه، وائتمامًا به، حيثُ ما قادك ٱنقَدتَ معه.

فتلاوةُ القرآن تتناولُ تلاوةَ لفظه ومعناه، وتلاوةُ المعنىٰ أشرفُ من مجرَّد تلاوة اللفظ، وأهلُها هم أهلُ القرآن الذين لهم الثناءُ في الدنيا والآخرة، فإنهم أهلُ متابعةٍ وتلاوةٍ حقًّا.

فصل

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[2].

لـمَّا أخبر سبحانه عن حال من ٱتبعَ هداه في معاشه ومعاده أخبَر عن حال من أعرَض عنه ولم يَتَّبِعْه، فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، أي: عن الذِّكر الذي أنزلتُه[3].

فالذكرُ هنا مصدرٌ مضافٌ إلىٰ الفاعل، كـ «قيامي» و«قراءتي»، لا إلىٰ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ١٦٧، ١٠/ ١٧٦، ١٥/ ٧٠، ٣٩٠)، و«شرح العمدة» (٨٨ - الصلاة).

(٢) وما مضىٰ من (ص: ٨٨) إلىٰ هنا كلُّه متعلِّقٌ بالآية التي قبلها.

(٣) (ح، ن): «أنزله».

المفعول(١). وليس المعنىٰ: «ومن أعرض عن أن يذكرني»، بل هذا لازمُ المعنىٰ ومقتضاه من وجهٍ آخر سنذكره.

وأحسنُ من هذا الوجه أن يقال: الذِّكرُ هنا مضافٌ إضافة الأسماء، لا إضافةَ المصادر إلىٰ معمولاتها، والمعنىٰ: «ومن أعرض عن كتابي ولم يتَّبِعْه»؛ فإنَّ القرآن يسمَّىٰ ذكرًا، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [يس: ١١].

وعلىٰ هذا، فإضافتُه كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يُقْصَدُ بها إضافةُ العامل إلىٰ معموله. ونظيرُه في إضافة اسم الفاعل: «غافر الذَّنب، وقابل التَّوب، شديد العقاب»، فإنَّ هذه الإضافات لم يُقْصَد بها قصدُ الفعل المتجدِّد، وإنما قُصِدَ بها قصدُ الوصف الثابت اللازم؛ ولذلك جرت أوصافًا علىٰ أعرف المعارف، وهو ٱسمُ الله تعالىٰ، في قوله تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٢-٣].

---

(١) انظر تقرير هذا الوجه ــ والوجه الآتي الذي هو أحسن منه ــ في: «درء التعارض» (١/ ١٦٧)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٣٣٤)، و«منهاج السنة» (٢/ ١٥٥)، و«الصواعق المرسلة» (٨٤٥، ١٥٢٦)، و«الوابل الصيب» (١٠٦)، و«جلاء الأفهام» (٦٢٠)، و«الفوائد» (٢٤٦).

فصل

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ فسَّرها غيرُ واحدٍ من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآيةَ أحدَ الأدلَّة الدَّالَّة علىٰ عذاب القبر[1].

ولهذا قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، أي: تُتْرَكُ في العذاب، كما تركتَ العملَ بآياتنا. فذكرَ عذابَ البرزخ، وعذابَ دار البوار.

ونظيرُه قولُه تعالىٰ في حقِّ آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، فهذا في البرزخ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فهذا في القيامة الكبرىٰ.

ونظيرُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فقولُ الملائكة: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ المرادُ به عذابُ البرزخ، الذي أوَّلُه يومُ القبض والموت.

ونظيرُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، فهذه الإذاقةُ هي في البرزخ، وأوَّلُها حين الوفاة؛ فإنه معطوفٌ علىٰ قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٣٩٢)، و«الدر المنثور» (٥/ ٦٠٧).

وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾، وهو من المَقُول المحذوف قولُه[1] لدلالة الكلام عليه، كنظائره، وكلاهما واقعٌ وقت الوفاة.

وفي «الصحيح»[2] عن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال: «نزلت في عذاب القبر»[3].

والأحاديثُ في عذاب القبر تكادُ تبلغُ حدَّ التواتر[4].

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه أخبر أنَّ من أعرض عن ذكره، وهو الهدىٰ الذي من ٱتبعه لا يضلُّ ولا يشقىٰ، فإنَّ له معيشةً ضنكًا، وتكفَّل لمن حفظ عهدَه أن يُحْيِيَه حياةً طيِّبةً ويجزيه أجره في الآخرة، فقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فأخبرَ سبحانه عن فلاح من تمسَّك بعهده علمًا وعملًا، في العاجلة بالحياة الطيِّبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشةُ الضَّنكُ في الدُّنيا والبرزخ، ونسيانُه في العذاب بالآخرة.

---

(١) (ق، د): «القول المحذوف مقوله». (ت): «القول المحذوف فقوله له لا له». وكلاهما خطأ.

(٢) (ق): «الصحيحين». «صحيح البخاري» (١٣٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧١).

(٣) وانظر للآيات الدالة علىٰ عذاب القبر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٦٦)، و«عدة الصابرين» (٣٦٠)، و«الروح» (٢٧١- ٢٧٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٨٥)، و«الروح» (٢٢٨)، و«نظم المتناثر» للكتاني (١٢٥).

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧]، فأخبر سبحانه أنَّ ٱبتلاءه بقرينه[1] من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعَشْوِه عن ذكره الذي أنزله علىٰ رسوله، فكان عقوبةُ هذا الإعراض أنْ قيَّض له شيطانًا يقارنُه، فيصدُّه عن سبيل ربِّه وطريق فلاحه، وهو يحسبُ أنه مهتدٍ، حتىٰ إذا وافىٰ ربَّه يوم القيامة مع قرينه، وعاينَ هلاكَه وإفلاسَه، قال: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وكلُّ من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكرُ الله، فلا بدَّ أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذرٌ في ضلاله إذا كان يحسبُ أنه علىٰ هدى، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؟

قيل: لا عذرَ لهذا وأمثاله من الضُّلَّال الذين منشأ ضلالهم الإعراضُ عن الوحي الذي جاء به الرسولُ ﷺ، ولو ظنَّ أنه مهتدٍ، فإنه مفرِّطٌ بإعراضه عن ٱتباع داعي الهدىٰ، فإذا ضلَّ فإنما أُتِيَ من تفريطه وإعراضه. وهذا بخلاف من كان ضلالُه[2] لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكمٌ آخر، والوعيدُ في القرآن إنما يتناولُ الأول، وأما الثاني فإنَّ الله لا يعذِّبُ أحدًا إلا بعد إقامة الحجَّة عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

---

(١) (ح، ن): «أن من ابتلاه بقرينه».

(٢) (ح، ن): «من كان علىٰ ضلالة».

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالىٰ في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩].

وهذا كثيرٌ في القرآن(١).

فصل

وقولُه تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ اُختُلِف فيه: هل هو مِن عمىٰ البصيرة أو مِن عمىٰ البصر؟(٢).

والذين قالوا: هو مِن عمىٰ البصيرة، إنما حملهم علىٰ ذلك قولُه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقولُه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقولُه تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ

---

(١) انظر لمبحث العذر بالجهل في مسائل الاعتقاد عند المصنف: «طريق الهجرتين» (٩٠١)، و«الروح» (٢٩٤، ٣٧٤، ٤٥٤)، و«إعلام الموقعين» (٢/ ١١٩)، و«مدارج السالكين» (١/ ٩، ٣/ ٤٨٩)، وفهرس العقيدة آخر الكتاب.

(٢) انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٣٠١)، و«المفردات» للراغب (٥٨٨)، و«البرهان» للزركشي (٤/ ١٧٠)، وما سيأتي (ص: ٣٠٧).

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٦-٧]. ونظائرُ هذا مما يُثبِتُ لهم الرؤيةَ في الآخرة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورىٰ: ٤٥]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٣-١٤]، وقوله: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجَّحوا أنه من عمىٰ البصر، قالوا: السِّياقُ لا يدلُّ إلا عليه؛ لقوله(١): ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾، وهو لم يكن بصيرًا في كفره قطُّ، بل قد تبيَّن له حينئذٍ أنه كان في الدُّنيا في عمًى عن الحقِّ، فكيف يقول: وقد كنتُ بصيرًا؟! وكيف يجابُ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾؟!

بل هذا الجوابُ فيه تنبيهٌ علىٰ أنه من عمىٰ البصر، وأنه جُوزِيَ من جنس عمله؛ فإنه لما أعرض عن الذِّكر الذي بعثَ اللهُ به رسوله، وعَمِيَت عنه بصيرتُه، أعمىٰ الله بصرَه يوم القيامة، وتركَه في العذاب، كما ترك الذِّكر في الدُّنيا، فجازاه علىٰ عمىٰ بصيرته عمىٰ بصره في الآخرة، وعلىٰ تركِه ذكرَه تركَه في العذاب.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقد

---

(١) (ح، ن): «كقوله».

قيل في هذه الآية أيضًا: إنهم عميٌ وبكمٌ وصمٌّ عن الهدىٰ، كما قيل في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، قالوا: لأنهم يتكلَّمون يومئذٍ، ويسمعون، ويبصرون.

ومن نصر أنه العمىٰ والبَكَم والصَّمم المضادُّ للبصر والسمع والنُّطق، قال بعضهم: هو عمًى وصممٌ وبكمٌ مقيَّدٌ لا مطلق، فهم عُميٌ عن رؤية ما يسرُّهم وسماعِه. وهذا قد رُوي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: «لا يرونَ شيئًا يسرُّهم»[1].

وقال آخرون: هذا الحشرُ حين تتوفَّاهم الملائكة، يخرجونَ من الدُّنيا كذلك، وإذا قاموا من قبورهم إلىٰ الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد. وهذا مرويٌّ عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكونُ إذا دخلوا النارَ واستقرُّوا فيها، سُلِبوا الأسماعَ والأبصارَ والنطق، حين يقولُ لهم الربُّ تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]؛ فحينئذٍ ينقطعُ الرجاء، وتَبْكَمُ[2] عقولُهم، فيصيرونَ بأجمعهم عُميًا بكمًا صُمًّا؛ لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يُسْمَعُ منهم بعدها إلا الزفيرُ والشهيق. وهذا منقولٌ عن مقاتل[3].

والذين قالوا: المرادُ به العمىٰ عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لا حجة

---

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ٥٦٠).

(٢) على المجاز. وفي (ق): «تبلم». أي: تسكت.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٣، ٣/ ٥١٩)، و«الكشف والبيان» (٦/ ١٣٦)، و«زاد المسير» (٥/ ٩٠).

لهم، ولم يريدوا أنَّ لهم حجةً هم عُميٌ عنها، بل هم عُميٌ عن الهدىٰ كما كانوا في الدُّنيا؛ فإنَّ العبدَ يموتُ علىٰ ما عاش عليه، ويُبْعَثُ علىٰ ما مات عليه.

وبهذا يظهرُ أنَّ الصوابَ هو القولُ الآخر، وأنه عمىٰ البصر؛ فإنَّ الكافر يعلمُ الحقَّ يوم القيامة عِيانًا، ويُقِرُّ بما كان يجحدُه في الدُّنيا، فليس هو أعمىٰ عن الحقِّ يومئذ(1).

وفصلُ الخطاب: أنَّ الحشرَ هو الضمُّ والجمع.

ويرادُ به تارةً الحشرُ إلىٰ موقف القيامة؛ كقول(2) النبي ﷺ: «**إنكم محشورون إلىٰ الله حفاةً عراةً غُرلًا**»(3)، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ويرادُ به الضمُّ والجمعُ إلىٰ دار المستقَرِّ؛ فحشرُ المتقين: جمعُهم وضمُّهم إلىٰ الجنة، وحشرُ الكافرين: جمعُهم وضمُّهم إلىٰ النار.

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٣]، فهذا الحشرُ هو بعد حشرهم إلىٰ

---

(1) (ح، ن): «حينئذ».

(2) (ح، ن): «القول». وهو خطأ.

(3) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس.

الموقف، وهو حشرُهم وضمُّهم إلىٰ النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠ - ٢١]، ثم قال تعالىٰ: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، وهذا[1] الحشرُ الثاني.

وعلىٰ هذا فهم ما بين الحشر الأول ـ من القبور إلىٰ الموقف ـ والحشر الثاني: يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلّمون[2]، وعند الحشر الثاني: يُحْشَرون علىٰ وجوههم عُميًا وبُكمًا وصُمًّا[3].

فلكلِّ موقفٍ حالٌ يليقُ به ويقتضيه عدلُ الربِّ تبارك وتعالىٰ وحكمتُه، فالقرآن يُصَدِّقُ بعضُه بعضًا، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فصل

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لما ٱقتضت حكمتُه ورحمتُه إخراجَ آدم وذريته من الجنة أعاضهم أفضلَ منها، وهو ما أعطاهم من عَهْده الذي جعله سببًا مُوصِلًا لهم إليه، وطريقًا واضحًا بيِّن الدلالة عليه، من تمسَّكَ به فاز واهتدىٰ، ومن أعرض عنه شَقِيَ وغوىٰ.

ولما كان هذا العهدُ الكريم، والصِّراط المستقيم، والنبأ العظيم، لا

---

(١) (ح): «وهو».

(٢) كذا في الأصول، وهو مستقيم. وفي (ط): «وعلىٰ هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلىٰ الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلىٰ النار، فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون...»، من تصرف الناشر، لم يفهم السياق.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٥٥٩).

يوصلُ إليه أبدًا إلا من باب العلم والإرادة؛ فالإرادةُ بابُ الوصول إليه، والعلمُ مفتاحُ ذلك الباب المتوقِّف فتحُه عليه، وكمالُ كلِّ إنسانٍ إنما يتمُّ بهذين النوعين: هِمَّةٌ ترقِّيه، وعلمٌ يبصِّره[1] ويهديه= فإنَّ مراتبَ السعادةِ والفلاح إنما تفوتُ العبدَ من هاتين الجهتين، أو من إحداهما:

* إمَّا أن لا يكون له علمٌ بها، فلا يتحركُ في طلبها.

* أو يكون عالمًا بها ولا تنهضُ همَّتُه إليها.

فلا يزالُ في حضيض طبعه محبوسًا، وقلبُه عن كماله الذي خُلِقَ له مصدودًا منكوسًا، قد أسامَ نفسَه مع الأنعام راعيًا مع الهَمَل، واستطابَ لُقَيْمات الراحة والبَطالة، واسْتَلانَ فراشَ العجز والكسل، لا كمن رُفِعَ له[2] عَلَمٌ فشمَّر إليه، وبُورِكَ له في تفرُّده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه، قد أبَتْ غَلَباتُ شوقِه[3] إلا الهجرة إلىٰ الله ورسوله، ومقَتَت نفسُه الرفقاءَ إلا ٱبنَ سبيلٍ يرافقُه في سبيله.

ولما كان كمالُ الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرفُ العلم تابعٌ لشرف معلومه، كانت نهايةُ سعادة العبد التي لا سعادة له بدونها ولا حياة له إلا بها أن تكون إرادتُه متعلقةً بالمراد الذي لا يبلىٰ ولا يفوت، وعَزَماتُ همَّته مسافرةً إلىٰ حضرة الحيِّ الذي لا يموت. ولا سبيل له إلىٰ هذا المطلب

---

(١) (ت): «يوصله».

(٢) (ق): «دفع له». وفي (ت): «وقع له».

(٣) الغَلَبات: جمع غلبة. مولدة. قال محمد بن داود في «الزهرة» (٢٤٥) من أبيات:

أبَتْ غلَباتُ الشَّوقِ إلا تقرُّبا ... إليكَ ونأيُ العذلِ إلا تجنُّبا

وتحرفت العبارة في (ق، ت).

الأسنىٰ والحظِّ الأوفىٰ إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه، الذي بعثه لذلك داعيًا، وأقامه علىٰ هذا الطريق هاديًا، وجعله واسطةً بينه وبين الأنام، وداعيًا لهم بإذنه إلىٰ دار السَّلام، وأبىٰ سبحانه أن يفتحَ لأحدٍ منهم إلا علىٰ يديه، أو يقبل من أحدٍ منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه، فالطرقُ كلُّها إلا طريقَه ﷺ مسدودة، والقلوبُ بأسرها إلا قلوبَ أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسةٌ مصدودة.

فحقٌّ علىٰ من كان في سعادة نفسه ساعيًا، وكان قلبه حيًّا عن الله واعيًا، أن يجعل علىٰ هذين الأصلين مدارَ أقواله وأعماله، وأن يُصَيِّرهما آخِيَّتَه[1] التي إليها مفزعُه في حياته ومآله.

فلا جَرَمَ كان وضعُ هذا الكتاب مؤسَّسًا علىٰ هاتين القاعدتين، ومقصودُه التعريف بشرف هذين الأصلين، وسمَّيتُه: «مفتاح دار السَّعادة ومنشور[2] ولاية العلم[3] والإرادة»؛ إذ كان هذا من بعض النُّزُلِ[4] والتُّحَف التي فتح الله بها عليَّ حين ٱنقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفسي ببابه مسكينًا ذليلًا، وتعرُّضي لنفحاته في بيته وحوله بكرةً وأصيلًا، فما خابَ من أنزل به حوائجَه، وعلَّق به آمالَه، وأصبح ببابه مقيمًا وبحِمَاه نزيلًا.

(١) (ق): «أجنده». والآخيَّة: عودٌ يعرض في الحائط، ويُدْفَنُ طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة، تُشَدُّ إليه الدابة. وفي الحديث: «مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيَّته، يجول ثم يرجع إلىٰ آخيَّته، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلىٰ الإيمان». «النهاية» (١/ ٢٩)، و«صحيح ابن حبان» (٦١٦).

(٢) (ت): «ومنتهى».

(٣) (ق): «ولاية أهل العلم».

(٤) وهو ما يهيَّأ للنزيل من الضيافة. «اللسان» (نزل).

ولما كان العلمُ إمام الإرادة، ومقدَّمًا عليها، ومفصِّلًا لها، ومرشدًا إليها، قدَّمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة.

ثم نُتْبِعُه ـ إن شاء الله ـ بعد الفراغ منه كتابًا في الكلام على المحبة، وأقسامها، وأحكامها، وفوائدها، وثمراتها، وأسبابها، وموانعها، وما يقوِّيها، وما يُضْعِفُها، والاستدلال بسائر طرق الأدلَّة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذَّوق والوَجْد على تعلُّقها بالإله الحقِّ الذي لا إله غيره، بل لا ينبغي أن تكونَ إلا له، ومِنْ أجله، والردَّ على من أنكر ذلك، وتبيين فساد قوله عقلًا ونقلًا، وفطرةً وقياسًا، وذوقًا ووَجْدًا[1].

فهذا مضمونُ هذه التحفة، وهذه عرائسُ معانيها الآن تُجْلى عليك، وخُودُ أبكارها البديعة الجمال تَرْفُلُ في حُلَلِها وهي تُزَفُّ إليك، فإما «شمسٌ منازلُها بسَعْد الأسعد»[2]، وإما «خَوْدٌ تُزَفُّ إلى ضريرٍ مُقْعَد»[3]، فاختر لنفسك إحدى الخُطَّتين، وأنزِلها فيما شئتَ من المنزلتين، ولا بدَّ لكلِّ

---

(١) وهو كتابه الكبير في المحبة، واسمه: «المورد الصافي والظلُّ الضافي»، ولعله هو «قرة عيون المحبين وروضة العارفين»، أما الصغير فهو «روضة المحبين». انظر: «طريق الهجرتين» (١٢٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ٩٢، ٢/ ٥٤، ٣/ ١٩)، و«ابن القيم» للشيخ بكر أبو زيد (٢٥٣، ٣٠٥). وقد بحث المصنف مسائل المحبة كذلك في كتابيه: «الفتوحات القدسية»، و«التحفة المكية»، كما أشار إلى ذلك في «بدائع الفوائد» (٩٥، ٨٤٥، ٨٤٦).

(٢) وهو أحمدُ السُّعود من المنازل. ويقال له: سعد السُّعود. وهو أشهر.

(٣) الخَوْد: الفتاة الشابة الحسنة الخَلْق. وهذا مثلٌ يكثر دورانه في كتب المصنف، وهو شطر بيتٍ للحسين بن الحجاج (ت: ٣٩١) سفيه الأدباء، في «المنتخل» (٥١٦)، و«التمثيل والمحاضرة» (١١٨)، و«اليتيمة» (٣/ ٦٠). ولم أجده في «درة التاج»، و«تلطيف المزاج».

نعمةٍ من حاسد، ولكلِّ حقٍّ من جاحدٍ ومعاند.

هذا، وإنَّ ما أُودِعَ من المعاني والنفائس رهنٌ عند متأمِّله ومُطالِعه، له غُنْمُه وعلىٰ مؤلِّفه غُرْمُه، وله ثمرتُه ومنفعتُه ولصاحبه كَدُّه[1] ومشقَّتُه، مع تعرُّضه لمطاعن الطاعنين، ولاعتراض المنافسين[2]، وعَرْضِه بضاعتَه المزجاة وعقلَه المَكْدُود علىٰ عقول العالمين[3]، وإلقائه نفسَه وعِرْضه بين مخالب الحاسدين، وأنياب البغاة المعتدين.

فلك أيها القارىء صَفْوُه ولمؤلِّفه كدرُه، وهو الذي تجشَّم غِراسَه وتعبَه ولك ثمرُه، وها هو قد استَهْدَف لسهام الرَّاشقين، واستَعْذَر إلىٰ الله من الزلل والخطأ، ثم[4] إلىٰ عباده المؤمنين.

اللهمَّ، فعياذًا بك ممَّن قَصُرَ في العلم والدِّين باعُه، وطالت في الجهل وأذىٰ عبادك ذراعُه، فهو لجهله يرىٰ الإحسانَ إساءةً والسنةَ بدعةً والعُرْفَ نُكرًا، ولظلمه يجزي بالحسنة سيئةً كاملةً وبالسيئة الواحدة عشرًا.

قد اتَّخذ بَطَر الحقِّ وغَمْط[5] الناس سُلَّمًا إلىٰ ما يحبُّه من الباطل ويرضاه، ولا يعرفُ من المعروف ولا ينكرُ من المنكر إلا ما وافقَ إرادتَه أو خالفَ هواه[6].

---

(١) مضبوطة في (ق). وفي (ن، ح): «كدره».

(٢) (ق): «المناقشين». (د): «المناقسين». (ن، ح): «المتنافسين».

(٣) (ح، ن): «وهذه بضاعته المزجاة وعقله المكدود يعرض على عقول العالمين».

(٤) «ثم» ليست في (ت، د، ق).

(٥) (ق، ت): «وغمض». (د): «وغمص».

(٦) (ق): «حالف» بالمهملة. تحريف. وفي العبارة لفٌّ ونشرٌ مرتَّب؛ فالمعروف ما وافق إرادته، والمنكر ما خالف هواه.

يستطيلُ علىٰ أولياء الرسول وحزبه بأصغرَيْه[1]، ويجالسُ أهلَ الغيِّ والجهالة ويزاحمُهم بركبتَيْه.

قد ٱرتوىٰ من ماءٍ آجنٍ وتضلَّع، واستشرفَ إلىٰ مراتب ورثة الأنبياء وتطلَّع، يركضُ في ميدان جهله مع الجاهلين، ويبرزُ عليهم في الجهالة فيظنُّ أنه من السابقين، وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الوراثة النبوية بمعزِل، وإذا نزل الورثةُ منازلهم منها فمنزلتُه منها أقصىٰ وأبعدُ منزِل.

نَـزَلوا بمكَّـةَ في قبائـل هاشـمٍ ... ونزلـت بالبيـداءِ أبعـدَ منـزلِ[2]

وعياذًا بك ممَّن جعلَ الملامةَ بضاعتَه، والعَذْلَ نصيحتَه، فهو دائمًا يُبدي في الملامةِ ويُعِيد، ويكرِّرُ علىٰ العَذْل فلا يفيد ولا يستفيد.

بل عياذًا بك من عدوٍّ في صورة ناصح، ووليٍّ في مِسْلاخ بعيدٍ كاشِح، يجعلُ عداوتَه وأذاه حذرًا[3] وإشفاقًا، وتنفيرَه وتخذيلَه إسعافًا وإرفاقًا!

وإذا كانت العينُ لا تكادُ إلا علىٰ هؤلاء تفتَح، والميزانُ بهم يخفُّ ولا يَرْجَح، فما أحرىٰ اللبيبَ بأن لا يُعِيرَهم من قلبه[4] جزءًا من الالتفات، ويسافر في طريق مقصده بينهم سفرَه إلىٰ الأحياء بين الأموات.

---

(١) قلبه ولسانه.

(٢) البيت ـ باختلافٍ يسير ـ لعمر بن أبي ربيعة في «ديوانه» (٣٢٠). وأنشده عبيدُ الله بن إسحاق بن سلام في «أمالي القالي» (١/ ٢٠٢). ودون نسبة في «طبقات الفقهاء» للشيرازي (١٠٣)، و«العاقبة» لعبد الحق (١٧٧).

(٣) (د، ت، ن): «حذارا».

(٤) (ت): «قبله».

وما أحسنَ ما قال القائل[1]:

وفي الجهلِ قبل الموتِ موتٌ لأهله ... وأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ من جُسومِهم ... وليس لهم حتىٰ النُّشورِ نُشورُ

اللهمَّ فلك الحمد، وإليك المشتكىٰ، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

فلنشرع الآن في المقصود بحول الله وقوته، فنقول:

---

(١) ينسبان لعليٍّ رضي الله عنه في «أنوار العقول من أشعار وصي الرسول» لقطب الدين البيهقي (ت: ٥٧٦) (١٩٢). وأنشدهما الماوردي في «أدب الدنيا والدين» (٣٧) لبعض أهل عصره، وهو أشبه، ونُسِبا إليه في «سرِّ السرور» للنيسابوري ــ كما في «إرشاد الأريب» (١٩٦٥) ــ. ولبعض أهل البصرة في «تفسير القرطبي» (٧/ ٧٨). ودون نسبة في «نتائج الفكر» (٣٤). وورد صدر البيت الثاني في هذه المصادر برواية مختلفة.